وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
موسم الكبك
أحمد إبراهيم الشريف
رواية
كتابة

موسم الكبك

رواية

أحمد إبراهيم الشريف

لوجو
الهيئة المربع

سلسلة
كتابة

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر
محمد أبو المجد

مدير عام النشر
ابتهال العسلى

الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• موسم الكبك
• أحمد إبراهيم الشريف
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2013م
13,5 × 19,5 سم
• تصميم الغلاف:
أحمد الجنايني
• تدقيق لغوى: جواد البابلى
• رقم الإيداع: ١١٣٢٩ / ٢٠١٣
• الترقيم الدولى: 978-977-718-416-8
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

14

سلسلة شهرية تعنى بنشر إبداعات الشباب

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
د. هيثم الحاج على

مدير التحرير
السعيد المصرى

سكرتير التحرير
يونس شعبان

الأراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

موسم الكُبك

الإهـــداء

إلى "خليل"

أبى الروحى

هذا بعض دَمي..

ترنيمة منك حَاولتُ أن أعيد عزفها..

أحمد

تمشي الأرض تحت أقدامنا ونحن نائمون، هذا ما لا ندركه حتى يأتي الزمن، في هيئة عجوز تقرأ الكف، فنتنبه متأخرين أن الأرض أهلكها السير تقريبا، وأن أعمارنا أكلتها الحكايات، وأن جلوسنا نجتر الذكريات بهذه الطريقة البشعة يعني أننا لا نبصر الآن جيدا بسبب تلك الغبارة التي تسكن في تجاويفنا أجدني على عتبة البوابة الحجرية بعد أن أكلتها الأرض، وجهي معفر في ترابها وهناك من يضغط على رأسي كي يظل أسفل.

أنَّى لي بحكي يشبه رائحة اليوسفي الأخضر وليمون القطن؟!

تقاسيم

الناس في قريتي صنفان، الأول لا فضل فيه لفرد على فرد إلا بزيادة في الفقر، فمن يملك حصيرا من الحلفا يملك "فرشا"، ومن يملك سريرا كان قد اشتراه يوم زواجه فقد سقطت خشباته ولم يعد ينفع بشيء، وهناك من يفصل بينه وبين الزريبة بعازل من الخوص، وهناك من لا يفعل ذلك.

الصنف الثاني هو الذي يملك الأرض والناس.. لكن الموضوع ليس كما يتم تصويره عادة في الكلاسيكيات من الأفكار بأن كل شيء طبقتان.. لا فهنا يختلط كل ذلك بالرضا، الغنى موجود لأن الله أراد ذلك.. والمعدم يستحق ذلك هو وأجداده.

ثم حدث أن واحدا منهم حاول أن يتذكر أي شيء مختلف في سلسلة الأجداد فلم يجدهم إلا معدمين[1]، والناس على عهدها

مغرمة بالتصنيف فيقسمون الأجداد إلى من يحفظ كرامته ويظل يأكل جوعه في البيت، ومنهم من كان صوت معدته أكثر صخبا فنسي وما أنساه إلا العوز[٢] فأكل ما ألقت به موائد الأغنياء، ثم يتسع الخرق بين الفريقين.. فأهل الكرامة ينعزلون في قبلي البلد وهم على فقرهم لا يعدمون أن يخرج من أصلابهم ثائر يعترض على كبير طلب منه أن يربط له الحمار، فرفض وشد قامته وأولى ظهره، لكنه بعد ليلة وثانية وثالثة في نقطة الشرطة يردد بينه وبين نفسه ليتني ما كنت التقيته في ذلك اليوم الأغبر، لكنه لا يقول أبدا ليتني ربطت له الحمار[٣]

عيون الموتى

لا تحيكوا ثيابكم بالليل
إن فعلتم.. فانتبهوا..
فإنكم تحيكون عيون الموتى.. (٤)

أسفل شجرة صغيرة تحلق الحياة متنقلة بين شمس وظل، حيث لا يمكن اختزالها في حالة بسيطة من الحركات، ولا يمكن أن يعاد بناؤها وترتيبها بالطريقة البسيطة المباشرة، فقد أصبحت الأمور معقدة أكثر من اللازم، ولا يمكن تقبلها بتلك البساطة التي لا نملك حيالها شيئا، اتخذت "ابنة حياة" طريقها الذي تسلكه كل صباح، كانت تعلم أنها سوف تلتقيه في المكان نفسه، تجده تحت شجرة السنط واقفا دائما، تكاد الفروع الصغيرة تخفي وجهه تماما؛ لكن نظراته الحارقة تتسلل من بين تلك الفروع لتخترق كل الأحجبة التي

كانت تظن أنها تملكها ؛ ركعتين للصلاة والكثير من الدعوات التي اصطادتها في الشارع من النساء اللواتي اصطففن أمام العتبات يمضغن الشمس على نتوءات أسنانهن المتبقية، كل هذا يتطاير عندما تقترب من شجرة السنط، ترى العينين الثاقبتين المتعبتين تخترقان جبهتها، تتذكر أياما حاضرة بين يديها وليست بعيدة حين كان لا يعكر صفوها شيء، سريعة منطلقة تدخل إلى عملها في الوحدة الصحية منسابة يكاد لا يشعر بها أحد..

لم تكن تعلم شيئا عن حالها التي تبدلت وصارت بين يوم وليلة متمردة حراةلا تملك زمامها، فهي تقطع الطريق كل يوم إلى عملها وبعد الظهر تعود في بساطة لا تتوقعها إن هي فكرت فيها.

وهي دائما ما تفكر فيها..

***

يتذكر الآخرون..

كانت صرختها الأولى حادة.. ربما خشنة فلم تستطع أم عابدين الداية أن تعرف طبيعة الاختلاف في الطفلة التي اندفعت فجأة من بين الفخذين المنصوبتين كغصني شجرة صفصاف أمام (تاية)[٥]، يعتمد عليهما الداخل والخارج، اندفعت بعيدا تهرب من بيت الظلمة الذي كانت فيه.. لم تنزلق على غشائها المائي اللزج، بل ارتمت فى يدي أم عابدين، تبكي بشكل مختلف.. ولما أعطتها لأمها "حياة" كي ترضعها.. شعرت أمها برجفة قوية.. كان خاتم الحسن يبزغ بين الصرخات المتوحشة[٦].

***

تذكر..

تلبس مريلة تخفي بالكاد ركبتيها وتحمل حقيبة قماشية صغيرة.. وتطلق عينيها كي تتحسسا المكان.. تزين شعرها بشريط أخضر وتتركه ضفيرة واحدة مستلقية على ظهرها، يميزها فرق طويل في وسط شعرها، ووجه أنثوى مكتمل الاستدارة، بملامح حسية.. ورثتها عن أمها.. وحيدة رغم صراعها المستميت كي تصادق الفتيات بلا طائل.. فصادقت الفتيان، تسلقوا معا شجر النبق وحبسوا بين أغصانه، في النهارات الحارة تسللوا إلى النخل المحرم في الجناين المحيطة آه.. كانت البلحة الحرام[٧] تسكن بين البلحات القليلة.. اندفعت بين الصبية تفتش بين الحشائش.. كانت البلحة حمراء مقمعة في أسفلها وكاملة الاستدارة.. تبرق ويكاد يسيل العسل المخفي فيها، تنعكس أشعة الشمس عليها فتزداد الفتنة.. اندفعت إليها ولما زاحمها الصبية كورت نفسها فوق البلحة.. وتناثر الصبية بعيدا، حملتها في جيبها وأضمرت أن تهديها لأمها وأكلت من البلحات الأخريات.. كل حين تمد يدها داخل جيبها وتتحسسها ناعمة مستقرة..

مسحتها في حجر جلبابها وأهدتها لأمها، وحكت لها كيف حصلت عليها، همت أمها أن تتركها على طرف الرحاية التي تستقر أمامها، رحاية صلدة تدور في زمجرة رتيبة، وأمها كاشفة عن ساقين ملفوفتين ناصعتى البياض في شكل أسطواني.. ألحت هي على أمها أن تأكلها الآن، أحست بحركة ما بين الخوص[٨] الذي

يغطي سقف البيت سارعت أمها وغطت ساقيها.. وأكلت.

***

"فلانة مرات فلان عملت الحرام مع النجس علان"[٩]، في كل الدنيا تبدأ الحكايات صغيرة وتكبر إلا في قريتي فهي تبدأ كبيرة وتكبر وتكبر الكلمات المغموسة في الشهوة تخترق البيوت والطين وتصدم الآذان.. بريق الجنس والقتل الذي في العيون، عندما يجتمعان معا في كلمتى فرسة / عاهرة، الكلمات المتناقضة، الأعزار المنقوضة، التربص، مصمصة الفم، الودودة، الصمت.. الصمت.

تتذكر..

تذهب الآن إلى النخلات وحيدة لا تجد سوى الكرمش العطن[١٠]، لم تكن صغيرة، كانت تدرك ما يحدث.. وإن لم تفهم بالتحديد.. كانت أمها دائمة البكاء.. وهي تبكي لبكائها.

يوم عودة الأب١١ كان يوما مشهودا، خرج الناس منذ الصباح يترقبون، فمنذ أسبوع يشقيها تأخره رفضت أمها أن تترك بيتها..

جدتها وخالتها تضربان حتى تكل الأيدى والأرجل.. فيستعملن العصي..فتتكسر كانت أمها في البداية تصرخ فيكتمان أنفاسها.. لم يعد للإيذاء معنى.. عندما يضربانها تقع عيناها على الخوص الذي يغطي الحوش.. فتضحك، فقد كان يختبئ لها فوق السقف وهي تخلع ملابسها استعدادا للاستحمام تجلس في طشت النحاس بجوار الكانون وتصب الماء على جسدها الفائر

كانت عيناه الشبقيتان تجوسان بين ملابسها تعريها.. حكى لها أنه عندما كان صغيرا كان يعري كل امرأة تمر بناظريه.. لكنه لم يكن يعلم ما يوجد أسفل ملابس النساء.. فكلما نزع ثوبا وجد ثوبا.. فينزعه فيجد ثوبا آخر حتى يكل فينام..ضحكت وقالت

- وماذا وجدت بعد ذلك؟

- الكاذبون حاولوا أن يخدعونا بأن أسفل ملابسها عورة..

صمت قليلا ثم أضاف:

- إنما هنا تسكن الملائكة...

تدلى عليها من السقف بعد أن كان يختبىء بين الخوص المحبوك، ثم تجرأ ..وكشف عن وجهه بعد أن كان يتمرغ كجرو صغير لا يبين.. جعلها بين العري والستر، التصق بها وهمس في أذنها.. بالسر، التقت أعينهما.. فتدلى من السقف.

كلما رأت جدتها تلك الابتسامة أو سمعت تلك الضحكة جنت وشدت شعرها.. خرج الشعر في يد الجدة حكايات وشهوة وعرق.

يتذكر الآخرون..

"حياة"(١٢)

صالت الناس وجالت في تلك الحواديت ولم تتوصل لشيء كان الكلام يبدأ وينتهي في ساقية الوقت الخربة المحشورة بالعفاريت.

***

اليوم الذي جاء فيه الأب كان يوما مشهودا، جاء ليلا بعد

العشاء.. أطبق الصمت، كف الناموس المتطاير وسكن الصبية بجوار أمهاتهم إلا من عيون يقلبونها خائفين..كان الخلق ساهرين يترقبون؛ منهم من يرشح الطلاق والخلاص بالمعروف، ومنهم من يتشمم رائحة الدماء يجدها لزجة بين أصابعه.. وقد يلمح بقعة تتسع على ملابسه.. الطلاق أم الدم.. آه.. من ثنائية الموت والحياة التي باتوا يعيشون بها.

مر هو وسط رجال، صمتت الحلوق ويبس الكلام وتمنوا لو لم يجئ ..كانوا سيظلون ينتظرونه.. حلق صوت البكاء متقطعا، ومر بين الخوص وبين شقوق الأبواب والنوافذ ودلف إلى كل بيت.. نفض الرجال المتربصون بالحكاية حجورهم من بقايا التبغ، وقفوا، دخل كل واحد منهم بيته، وتمنوا لو غاب للأبد، وظلت هي بينهم منتظرة عقابها الغائب.. كانت رائحتها تزداد حضورا.

مر هو وسط رجال قادما من الجزيرة، ما زالت يداه دافئتين، والعينان المتصلبتان تنغرسان في ضلوعه تفتش عنه.. تكلست يداه.. ضغط على العنق المعافر..كتم أنفاسها ظلت أظافرها مغروسة في ساعديه..

***

التقت عيناه الجدة المتكئة على حزنها.. وتعلقت بها الطفلة تدندن بشيء خافت.. لمح خاتم الحسن واضحا.. قال:

"نصيب.. كل إنسان لا يأخذ سوى نصيبه

***

بينما الخلق متظاهرون بالرقود في بيوتهم، كانت أنفاسها المختنقة تحت رمل الجزيرة تعذبهم.. ليته لم يجيء.. بكتها البنات الصغيرات.. وشددن ملابسهن حولهن إن رحن أو جئن، ولم تغتسل واحدة بعد اليوم أمام الكانون تحت الخوص المكشوف الذي تتسلل منه الشمس وعيون العاشقين.. وهبن أسرارهن للماء فى غرف مغلقة من الطين..

قبل الصباح مر هو وسط رجال تاركا القرية.. حاول أن يقبل البنت الصغيرة فارتجفت شفتاه لما لمح خاتم الحسن يشق الذقن[١٣] تتأمل..

البنت التي كبرت دون أن تدري سوى أن البلحة الحرام التي التقطتها ذات يوم قد أخذت أمها بلا رجعة وأخذت أباها إلى بلاد تسمع عنها.

***

حملت الإسعافات الأولية وانطلقت ناحية المركبة الراسية، وضعوا لها السقالة الخشبية، عبرت متكئة على ذراع لرجل قوي..قالت:

- أنا ممرضة يمكنني القول- حتى يأتي الدكتور - الجرح سطحي، نظفته وألصقت عليه شاشا أبيض.

..وعادت..

في شهادتها أمام النيابة في جريمة قتل السائح الأجنبى فى المركبة السياحية.. قالت:

كان الجرح في كتفه، لم أر ما كان أسفل الحوض.

***

عندما عاد أبوها في نعش طائر من بلاد تسمع عنها، حاولت تذكر ملامحه.. أي شيء.

حياة[١٤]

- الآخر.. النهر[١٥]

عادة ما تكون للأنهار رؤى أخرى لا يدركها السابحون.. هذه الرؤية قد تكشف عن لغط شديد، لم يكن ذلك وقته ولا مكانه..

***

غير النهر مجراه وزحف ناحية الشرق يأكل من ساسها، فيوما بعد يوم يلتهم الجزر والأشجار، والغاب، والبوط، وأشجار السنط، والرمال البيضاء، يروح ويجيء كل عام حتى كشف المستور، والمسكوت عنه.

***

من عادة الناس ألا تنسى جرائمها التي شاركت فيها بالسكوت، فى حين تنسى جرائمها التي شاركت فيها بالفعل.. تظل تتنقل من

دار إلى دار كل مساء[١٦] تصبها الأمهات في آذان الصبية.. ويظلون هم يتخيلون تلك الجرائم في المساحات الداكنة من الليل.. تأخذهم آخر صرخات المسروق.. وآخر توسلات المقتول.. ويتأملون الأمهات بقلوبهن القوية التي تسكنها الحجارة.. يُقتل الأبناء، وهن يهيئن الآخرين للمطالبة بالثأر.. وعندما يشدون[١٧] أغطيتهم البالية على أعينهم الذابلة.. يتمنون لو أشفق السارق، ولو رحم القاتل.

كانت الحكايات تأكلهم فيكادون يختبئون تحت أطنانها، ويتحولون إلى تفاصيل.. وإلى كم من الحكايات الموجعة..

***

غيَّر النهر مجراه تقريبا.. وصفع القرية بشدة فجعلها كعجوز انحنى ظهرها، أو كامرأة في أشهر حملها الأخيرة، تضع بطنها في قلب الماء.. ثم فجأة قفزت الحكايات القديمة على الشفاه، وأمسكت في تلابيب الناس، واحد يسرد، وثان يحكي، وثالث يضيف حوارا، ورابع شاهد بأم عينه، تُنبش القبور وتهب الحكايات، يكفي أن تثار جملة "النهر تحت نخلات حياة"

***

حياة"

حدوتة مظلومة.. تحتاج إلى رتوش جديدة كل يوم، كأنه لم يكفها ما ألم بها.. أصبحت مرسى القوارب الصغيرة وميقاتها كل عام في موسم الكَبك[١٨]، ولما خرج اسمها من تحت التراب،

خرجت في وضح النهار.. في عز الظهر تربصت بالسائرين فرادى، تسألهم أشياءهم، لكنهم لا يطيقون صبرا، يلقون ما في أيديهم، ويهيمون على وجوههم كما تراءى لخيالاتهم، حينها يقسم المقسمون أنها كما هي ما زالت في عز جمالها، محلولة الشعر ينسدل على كتفين ملساوين، ولها نهدان بارزان لكنهما مشقوقان ينزل منهما اللبن، الذي سرعان ما يبدو دما[١٩]

كان الناس يعرفون مدفنها بثلاث نخلات تشابكت وكبرت، ولها بلحة مختلفة غريبة، أسطوانية الشكل تشبة فخذ امرأة جميلة، ولها لون أحمر قان، يشبه دمعة من دم.. ولاحظ العاشقون أنها في الفترة الأخيرة تسقط بلحاتها بغزارة.

***

المركبة السياحية القادمة من الشمال[٢٠] التي أخطأت في مواقيتها، ودخلت حيز الصيد في وقت الغروب[٢١]، ظهرت فجأة من خلف الجزيرة الوسطى.. بكل حضورها أصبحت أمامهم.. بعد انحناءة بسيطة كانت فى قلب المشهد، كانت قادرة على أن تجعلهم يفتحون ملامحهم لآخر حدود الدهشة، كيف لم يشعروا بها منذ البداية؟ لعل أشجار الموز الممتدة على طول الوادى حجبتها تماما.. ثم قفزت فى قلب لوحة الصيد فجأة.. من الطرف إلى المركز بلونها الفضى بين الألوان التى اعتادتها الأعين، لم ينتبهوا إلا والآلة الحادة بينهم تشهر أسنتها الحادة، قاصدة الكَبك في عرض النهر، كى تحوله إلى مزق صغيرة..

اندفع الصيادون يدافعون عن أشيائهم البسيطة المفرودة على مدى البصر، وانطلقت الأعيرة النارية في الهواء[٢٢]، كل من معه فرد خرطوش، أو فرد عادي أطلق في الهواء، وتوقفت المحركات.. ولم يعد يسمع سوى صوت الصرخات من الصيادين.. كان اندفاع المركبة قد مر وسط كبك حمودة السيد فتكورت الشبكة خلف المحرك، وعلا صوت حمودة بالتهديد والشتائم، في اللحظة التي بدأت باقي القوارب تلم الشباك بسرعة مرة أخرى قبل اندفاع المركبة السياحية حال تشغيل المحرك، ثم أرهفت الآذان للصوت المميز الذي طب مكتوما، وللصرخة المكتومة.

خيم السكون.. ولم يقو أي واحد على النطق.. وقفت الصرخات غصة في حلوقهم، والزمن توقف لثوان معدودة مرت عليهم كدهر، ولم يتمالكوا أنفسهم، ولم يروا سوى بيوتهم الصغيرة وهي خربة بضياع الشباك وانتهاء موسم الصيد في بدايته، سكن النهر سكون الصائمين، والشفق الدامي ينزف أكثر الآن، ثم اصطفت القوارب حول المركبة الضخمة، وجذب "فرج محمدين نفسه للخلف..كانت الضجة في أعلى المركبة تدل على أن هناك من سقط فى الماء[٢٣]، أدرك الصيادون ذلك من صوت الرصاصة المكتوم، الذي لم يفرقع في الهواء، ومن السقوط من علٍ الذى فرقع فى الهواء.

***

اندفع عدد من الصيادين يحاولون اقتحام المركبة، لا يدرون ماذا يفعلون، فقط.. اندفعوا بتلقائية الإحساس بالخطر، لم يقدروا

الأمر، لكن خوف العاملين وشعورهم بالرعب من هيئاتهم وطريقة اقتحامهم، جعلهم يردون بعصبية وتوتر واضحين، فأخذوا يصرخون ويدفعونهم بعيدا، ومنهم من ارتكب حماقات بسيطة لكنها كافية لتجعل الإطار العام متوترا بشدة.

***

كان المنظر بدائيا كفيلم غربي قديم لسفينة حربية من الغزاة، بينما السكان الأصليون يحاولون تسلقها في شكل أسطوري.. ولا يملكون سوى القوارب الخشبية الصغيرة[٢٤]، يدافعون عن الذي يملكون، وكان لا بد من الشفق كي تكتمل الصورة.. ثم غابت الشمس وتسلل الظلام، وعلا الضجيج، ثم فشلت عملية الاقتحام على الرغم من أنها تمت بخطة علمية مدروسة وإن كانت غير معروفة لهم، لكنها فطرية.. فقد اندفعوا من جميع الجهات، وفي وقت واحد، لكن نظرا لارتفاع السور الحديدى، ولملاسة الجوانب، وعدم وجود أي بروز في المنطقة السفلى يسمح للإمساك بها، كذلك لصغر القوارب الخشبية فشلوا فى اعتلاء سطح المركبة السياحية.

***

"آه ..سوف تحدث كارثة لو قررت المركبة السياحية أن تكمل طريقها، ولم يعد في الإمكان استخدام الأعيرة النارية بعد هذا الصوت المكتوم للرصاصة الماضية"

حدثوا أنفسهم بهذه الكلمات، لكن فجأة كان عوض معبد يهتف من فوق دربزين المركب ويهلل بيديه، ويدعوهم للانضمام إليه[٢٥]

هربت الأمور من منطقة التعقل والتحكم.. ولم يعد بمقدور أي واحد من الموجودين أن يدير الأمور برؤية واضحة، فاعتمدوا على ما تأتي به الفطرة، كل الذي كانوا يريدونه أن تتجه المركبة إلى البر بعيدا عن الشباك الممتدة التي تطفو على السطح.. وكل الذي أرادوه من التسلق للمركب أن يتحدثوا مع العاملين في هذا الأمر، كي يتجنبوا الضرر.

***

كان لدوي الرصاص فعل الخوف في نفوس الرجال والنساء والأطفال في البيوت فخرجوا عن بكرة أبيهم[٢٦]، واصطفوا على ضفة النهر ينسابون مع التيار الخفيف يعتمدون على إضاءة المركبة السياحية، أما الظلام المندفع بقوة إلى أرواحهم فقد جعل أصواتهم تعلو، وتحلق من الخوف.

***

النيل السارح ناحية الشمال يحمل بين ضفتيه كثيرا من تلك الصدامات، يتعرج قليلا ولا يثبت على جانب.. يؤرقه الوجع الموجود في نفوس البشر، النيل بغنائه السرمدي وبمواويله[٢٧]، التي يسكنها الوجع، يعجبه ويروق له أحيانا أن يتوقف عن الغناء، ويسرب عدودة طويلة ممتدة داخل الغناء.. يغلق الأضواء داخل الرأس فيجعل العقل يقف مبهوتا ما الذي كان سيفعله الصيادون بعدما خاضوا في الأمر لهذه الدرجة؟ أصبحوا لا يقدرون على الرجوع، ولا حتى إبداء الخوف والتردد، لقد سقطت كل الفؤوس

التي يعلمونها والتي لا يعلمونها في رؤوسهم، ولم يعد بإمكانهم حتى مخاطبة أنفسهم.

***

بدأ صوت المحرك للمركبة السياحية يتحرك، تهتز معه دوائر الماء، التى صنعتها الحركة العنيفة، والصوت القوى الهادر الذى يزأر فى هذا القلق.. وكانت الأيدي تشير ناحية الشرق، بعد دورة وثانية غير مكتملة مالت المركبة شرقا مع الأيدي الممدودة وتناثرت القوارب الصغيرة في الظلام حولها، وعلى الضفة القريبة أشعل الناس أكواما من البوص وجريد النخل وفروع الشجر الجافة وعلت ألسنة النار كي تكشف ما يحيط بها[٢٨]، والمركبة السياحية أشعلت كامل إضاءتها، فحولت الليل إلى نهار ساطع وتلألأت هي وانعكست ظلالها على الماء، واكتسب المشهد سحرا إضافيا وتوترا عاما، وألقوا بالحبال القوية من المركبة وقفز الشباب بقوة في الماء، وداروا بالحبال حول نخلات حياة، حامية الكَبك في هذه الليلة الصعبة، وعلا صوت من المركب يطالب بالاتصال بالشرطة؛ لأن هناك من سقط فى الماء، وجرى بعض الأطفال ناحية "ابنة حياة" التي جاءت تهرول ناحية المركب..

***

كان محمد عمران فى انتظار أن ترسو المركب ومعه حمله الثمين، يحمله بين يديه.. فجرت عليه ابنة حياة وصاحت:

- دعه على الأرض يا عم محمد[٢٩]

***

لم يعد هناك متسع لشيء من الصيد عادت القوارب الصغيرة، وتناثرت الكلمات الضارة عن المصاب، وحالته، بعد أن قالت "ابنة حياة"

- يجب أن يذهب إلى المستشفى[٣٠]

***

لما أدركوا أن الشرطة في الطريق، فكر كل واحد في وسيلة للاختباء.. فتاريخهم مع الحكومة لا يساعد على البقاء، ومواجهة الأمر فما زال الهاربون من بحور دم "التبليط لم يعودوا.. وذلك بعد أن ولوا وجوههم شطر الصحراء[٣١] وما زال الذين ذهبوا إلى مستعمرات الكوليرا لم تبن لهم بائنة..كانوا يختفون ليلا بعد مقاومة ضعيفة لا يملكون غيرها..تقول الحكومة:

- سيأخذون المصل ليعيشوا..

ورغم مرور أكثر من أربعين عاما على ذهابهم ليأخذوا المصل لم يعد منهم أحد[٣٢] أما الذين ذهبوا قبل هؤلاء وهؤلاء ليشقوا الترعة الكبرى في السويس فليس لهم اسم ولا رسم في دفاتر الحكومة[٣٣] ولأن عددا من العقلاء كانوا يدركون تلك الحكايات فقد فروا قديما كي يختبئوا في الغيطان ويموتوا وبيوتهم على مرأى منهم

الحجز

بعد الهروب الكبير للسكان الأصليين[٣٤] والاختباء في الجزر المهجورة، وغيطان الذرة العالية، وقصب السكر، خاصة في النهار، أما في الليل فكانوا يمارسون حياة طبيعية، وإن كانوا بحرص.. لكنهم يروحون ويجيئون، يتجادلون فى هذه المصيبة التى حلت عليهم من حيث لا يعلمون.. ثم يسلمون الأمر لله، بعد أن ينفضوا أيديهم كأنهم يسقطون مشاكلهم من حجور جلابيبهم، وبعد أن أغرقوا القوارب الخشبية في قلب الماء، وخبأوا شباك الصيد في بطون الصوامع بين الغلال القليلة.. وبعد تصلب النساء على عتبات البيوت يلعن من يقترب من دورهن مدعيات الجهل.. فتضع المرأة منهن طرف طرحتها على فمها وذقنها.. ويبدأن فينكرن أسماءهن.. وينتهين منكرات للحادثة نفسها.

مع كل هذا لم ترجع قوة الشرطة خائبة الرجى، ولا خاوية الوفاض، فبعد أن أغلقت المقاهي، والغرز، والعشش.. مدت يدها في كل الجحور والمغارات.. حتى وجدت من يمكن أن يشكل حلقة البداية في سلسلة القادمين للسجون، وينتظرون في مخابئهم.

***

نعيق غراب غير بعيد ولغط أصوات متداخلة.. هذا كل الذي تسرب إليهم في حجزهم في تخشيبة البداري الضيقة الزخمة.. فالرائحة النتنة المنبعثة من كل مكان تنفرهم حتى من أنفسهم.. وقد جلسوا صامتين.. مطرقين.. لهم ألقابهم التي أصبحت أسماءهم (فتى وشيخ وعاشق وصياد وملعون وغريب)[٣٥]، تكوم الغريب فى جانب من التخشيبة.. كانت الدماء تسيل من جانب فمه، اقترب منه الشيخ أبوزيد وربت على مرفقه، فهز الغريب رأسه وصمت، تمتم معبد نصيب

- من الرجل الغريب؟

هب الرجل غاضبا

لست غريبا.. ياولاد الكلب.. أنا غريب!!! لست غريبا، اسألوا آباءكم وأمهاتكم.. من هو الغريب؟

تدخل الشيخ وقال:

- لا ليس غريبا أنتم فقط لا تعرفونه.. وقص قصته التي ملأتها الفجوات..كان هذا في الليلة الثالثة.. أما في الليلتين الأولى والثانية فلم تكن تلك الأفكار تطرح أصلا.. كان الرعب والخوف

والقلق يسيطرون على المشاعر، الآن سقطت عليهم من سقف التخشيبة مشاعر واختلاجات أخرى جديدة مثل: الونس والخوف المشوب بالتعود، فرزت عقولهم مضادات حيوية للرعب الذي كان مسيطرا..

في الليلة الأولى بينما الخوف هو سيد الموقف.. كان الصمت يسكن في تفاصيل المكان..

***

تسربت إضاءة خافتة في المكان.. ثم تداخلت الأصوات أكثر وحدث هرج أمام باب التخشيبة.. وتدفق عدد من العساكر داخل الغرفة الضيقة.. كانوا أشباحا مظلمة.. والضوء الخافت الذي يأتي من الخلف قد أثار الرعب في العيون المتطلعة الخائفة.. كانوا متشابهين في كل شيء.. في الزي والترقب والغباء، كأنما كانوا ينتظرون هاتفا من سماء أو من أرض.. فجأة انطلقوا يعيثون بعصيهم الغليظة التي لا تملك أعينا كي ترى ما تصيبه.. انطلقت العصى يمينا ويسارا.. في صمت.. سوى النفس المتردد الذي يدل على أنهم أحياء.. لكنهم أبدا ليسوا أناسا قد يبكون يوما أو يضعفون.. ولا حتى حيوانات معروفة تقتل إن شعرت بخوف أو حتى بجوع.. أو غير ذلك.. هم كائنات تقتل للمتعة.. للوجود..

اشتكت الرؤوس وأنَّت العيون، والأنوف تشعر بلزوجة ساخنة، اختلطت أصوات العظام المتحطمة المتكسرة بنحيب عامر، وأنين الشيخ، بينما تقوس عوض معبد بصورة حادة واضعاً رأسه بين يديه

متخذا شكل الجنين.. والغريب وهاشم وقفا مندهشين ثم سقطا مندهشين أيضا..ومحمد عمران لم يعرف أحد رد فعله.. استمر الضرب حتى سكن كل شيء.. الأنين.. والبكاء.. ولم يتبق سوى الدم وحده قادرا على التعبير عن نفسه حرا.. وانتشرت رائحته في الجو بصورة حادة.. أما المتشابهون فقد كلّت أيديهم من الضرب.

خرجوا فجأة كما دخلوا مصطحبين معهم الضوء الخافت.. لكن الحجز لم يعد كما كان في المرة الأولى.. كان الترقب هو المسيطر سابقا، الآن الرعب والقهر والألم والخوف والمهانة والذل والعجز أما الزمن فقد اختلف تعاطيه العادي وشابه زخم غريب.

***

مبنى أمن الدولة القديم على ترعة الإبراهيمية، المبنى يواجهه سجن أسيوط العام من الناحية الأخرى.. تفصل بينهما الترعة المندفعة التي تبغي الهروب من المكان المحصور بين أنات المعذبين والمظلومين، وجبروت المجرمين والظلمة.. كل هذا لم يدركوه.. تحركوا في الليل بدون توقع سوى للأسوأ.. كي يكونوا أمام المبنى في منتصف الليل٣٦، كان الصمت الوحشي هو ما يقلق، ورغم أنهم في شهر أكتوبر لكن البرد الشديد تحرك في داخلهم بقوة.. دخلوا في غرفة ضيقة.. نسوهم كثيرا وتمنوا هم ألا يذكرهم أحد.. ثم بدأ التحقيق معهم دخلوا جميعا إلى غرفة واسعة كان يقف فيها ضابط يشغل حيزا كبيرا خلف المكتب، يوليهم ظهره وظل كذلك لفترة طويلة وهم واقفون صفا متداخلا يكادون

يسقطون من الإعياء.. لم تكن الحجرة مرتبة بطريقة جيدة، فيد الضابط تعبث في المكان.. تكات الساعة الغبية التى وجدت لإثارة الأعصاب تلعب الآن بعقولهم التى استحضرت كل الصور البشعة التى يمكن تخيلها والتى أدركوها من الأيام القليلة / الطويلة التى قضوها فى التخشيبة.

عندما التفت إليهم الضابط فجأة وصاح فيهم:

- تخطفون مركبة سياحية.. وتقتلون سائحا.. ليلتكم ستكون طويلة.. ارتموا هناك..

أشار إلى غرفة مجاورة.. وكان في يده سوط استقر على جسد الشيخ الذي كان يتقدمهم معتمدا على مهابة ظنها موجودة.

***

بعد أن أكل الليل منهم الكثير وكاد القلق يفتك بهم دخلوا إلى الحجرة الضابط الكئيبة واحدا واحدا وكان الصوت يُسمع من بعيد(٣٧)

- ما اسمك؟
- عامر
- عمرك؟
- ١٧ سنة
- هل تعتقد أن الذين كانوا فى المركبة السياحية من الكفار؟
- لا أعرف

الضي[٣٨]..

سيل من النور سكب في روحي، حينما انساب الصوت يعلن حلول العشاء في روح الليل، فحينها يبدأ الليل الحقيقي الذي موعده تسرب صوت الأذان من الضفة الأخرى، مخترقًا الظلمة الساكنة إلا من نقيق ضفادع راحت تعلن بحثها عن حيز مفقود من وجع روحها، لعلها تلتقيه في ظلمة الليل.. في مفارقة مع من ضيعها في وضح النهار.. وربما هي سيرة جنسها في حضرة السيد / الظلام؛ الصنو الملازم للنور.. سيد الكشف في مواجهة سيد البوح، وكلٌ في ميقاته ملك[٣٩]، أو أن يسرق وحدتي صوت مجداف وحيد بين الحين والحين.

أنا كائن ليلي أبصر في الليل أشياء كثيرة، فليست العتمة قاتمة كما يتحدثون عنها.. فهذه الساقية على مسافة بعيدة صامتة في

سكون الليل المحيط بها.. تتربص بالمارين كي تكسر وحشة هذا السكون.. تأتي همهمة من يميني:

هل أذن الجامع البحري؟

دائما ما يشغلني سؤال: لماذا صوت الآذان يأتيني من الجهة الأخرى من الغرب؟، حيث المئذنة التي تبدو في البعيد بإضاءتها الواضحة.. تطل علي من بين بساتين العنب التي أسمع عنها كثيرا، آه من تلك المئذنة التي يشقيني البحث عنها نهارا فلا أجدها.. حتى أخالها من سكان الليل المتربصين بكل من يسير وحيدا، أو لا يحفظ من القرآن شيئا ولو يسيراً يحفظ به نفسه، تحيرني المئذنة كثيرا حتى إنَّ صوت آذانها يأتي إلي بالنهار خافتا ليس بتلك الرنة الليلية، فلا يعلو إلا عند قول الحقيقة التي هي حقيقة الموت(٤٠)

"الغرب.. آه من الغرب كل الذي يفصلني عنه هو النيل، عالم غامض من الخيالات يقطن في الضفة الأخرى؛ صوت القطار الذي يخترق أذني كل صباح فأرفع ناظري صوبه في حركة لا إرادية، وأنا أعلم أني لن أراه.. فهو يختبئ خلف أشجار وبساتين العنب المحرمة.. كم كانت تحرقني المعرفة وأنا أبصر أندادي القادمين بأقفاص العنب لبيعها و

- عامر

- نعم

- هل أذن الجامع البحري؟

يؤذن الآن..

"لماذا لا يصلي على آذان الجامع الغربي ؟" كان أكثر الذي يحيرني شيئاي؛ الآذان في رمضان.. مع أنني لم أكن أصوم ولكن لمة الإفطار تستولي على مشاعري.. وقد اشتعلت غضبا حين سمعت أن مؤذن المسجد البحري يفطر قبل الآذان معتمدا على الاستماع إلى مؤذن المسجد الغربي[٤١] والشيء الثاني عند انقطاع تيار الكهرباء.. نتحول إلى أشباح تشف.. أجري ناحية الغيطان وأول ما أُلقي ببصري ناحية النيل فإذا الإنارة على قمتها، أترقب حتى يتخللني صوت الآذان الذي لن أسمعه الليلة من جامعنا، أشعر أنني أشربه جزءا جزءا، بيننا النيل لا يفصل إلا بقدر المساحة الضيقة من الفراغ.. لكن السحر يتخللني.. علت الهمهمة واتخذت صوتا منتظماً

- الله أكبر

الليل إذ يطبق على الدنيا وينشر ظله يمارس فيها سره الأبدي[٤٢]، أما العفاريت شاهدة العرس الليلى فتسكن في السواقي المهجورة، وغيطان القصب، وعلى حافة الترع والمصارف.. يسلبونك الطمأنينة فى الليل ويمنحونك سرا جديدا تظن أنه يخصك وحدك..

تسرى العفاريت فى الهواء لكن موطنهم الأصلى كان أعلى نخلة "نافع المحرمة، التي أصبحت غذاء العفاريت منذ سقط نافع من عليها وهو يصرخ:

- لا ..اتركوني..اتركوني..

ظل لمدة ثلاثة عشر يوما يهذي، إنْ أفاق بكى، وإنْ راح في هذيانه اعتلته رجفة شديدة واصطكت أسنانه وصرخ:

- لا أريد أن أصلب على النخلة[٤٣]

حتى كانت تلك الليلة التي غافل فيها أهل بيته.. وخرج في هيئة مستقيمة تجاه نخلته، لا يحيد عن طريقه، كأنما هناك من يربطه بحبل من مسد نخلته.. حتى إن جاء النخلة تخلص من ثوبه، ومرة أخرى ارتدى جلده فقط.. وصوب نظره لشواشي النخلة، وشرع يركب حتى اعتلى جريدها وقحافها وصرخ.. وصرخ.. وكانت نخلته سروا طويلة تمتد كأنما تلامس السماء، فلما طالت انحنت كأنها مهيئة للسقوط، ولما أصبح نافع في موضع القلب منها صرخ صرخة عظيمة، فهب الناس من مضاجعهم، تخبطوا كثيرا ثم قليلا قبل أن يهتدوا لمكان الصرخة المتألمة.. ولما وصلوا كان نافع صامتا أسفل النخلة ملطخا في دمه..

وقد أقسم على الدرديري بكل الأيمان أنه رأى ثلاثة أو أربعة من الجن وهم يمسكون بنافع مثل الطفل الصغير ثم يلقون به زرع بصل، ولما سئل عن أشكالهم قال:

- الواحد فيهم راسه بتخبط في السما، وأسود وفي عنيه نار[٤٤]

***

أنا لا أخاف الليل.. فكل شيء حولي يبصر الآن.. حيث تشتعل البصائر في الليل ويحيا الجماد ويشع ببريق غريب.. حيث أنا الآن...

لم يكن المبيت في الغيط طريقة حياة. لكن في فترة (المساطيح)[٤٥] حيث نجمع كيزان الذرة في مساحة معينة قمنا باختيارها في مكان مشمس.. ثم نهيئها لاستقبال الكيزان بتنقية الحشائش.. ولهذه العملية طقوس ومنها المبيت بالليل بجوار هذه المساطيح.. وللمبيت أيضا طقوس منها ركوة الشاي والاستماع للراديو وقد حدثني أخي أنه في ليلة مثل هذه سمع بالليل حركة وغمغمة، ورأى كثيراً من الناس يحملون حصيرهم التي ينامون عليها ويعودون إلى بيوتهم.. وقبل أن يسألهم أحد كانوا هم يجيبون بأن السادات قد قتل في عرض عسكري في يوم نصره ونحسه[٤٦]

كانت ليلتى الأخيرة التى أستمع فيها لصوت العشاء الحزين[٤٧]

***

قبلي البلد أرض واسعة أو بالأحرى كانت واسعة.. يطلق عليها أرض "الحوَّاش ربما كانت تعني أرض الحوش وقد أصابها ما يصيب اللغة دائما من حركات وسكنات على حسب الحالة النفسية لمستهلكيها[٤٨] كانت أرض الحوَّاش بمثابة حرم البلد، وسياجه الآمن الذي يحميه من الناحية القبلية.. هذه الأرض تاريخ شاسع وعميق على أزمنة الفيضان وعصور الدميرة.. أرض لها لغتها ولها ساردها ولها ضحاياها، ولها تغلغلها الصارخ في طينة الناس هناك، والناس أيضا مختلفون في مجملهم عن بلاد أخرى فقد يكون النيل القوى الحنون قواهم ولطَّفهم بعض الشيء.

عندما اقترب سيد الحسيني[٤٩] من ركوة النار وسمع حسيس الشاي ألقى السلام وجلس، وحرك مسبحته وقال:

- ناويين تبيتوا هنا الليلادى؟

نظرت إلى أبي وأنا أصب الشاي في كبايات صغيرة أخذت لونا بنيًا داكنا، وقدمت الكوب إلى عمي سيد والثاني لأبي، بينما راح أبي يقول له:

- لا

نظر عمي سيد إلي نظرة طويلة، فهو يعرف أنني قليل الكلام، وعادة ما أختصر الأمر في جملة أو جملتين سريعا.. أما رغبتي في الاستماع فهي التي لا تقاوم، بخاصة عندما أسمعه يتحدث عن فترة تجنيده في الجيش، في مرحلة ما بعد ١٩٦٧م، إثر حالة الذهول التى أصابت الشعب.. لكنه يتجلى أكثر عندما يتحدث عن جنازة عبد الناصر ويعيد ويزيد في تصوير وقوفهم في ميدان باب الحديد من الفجر وحتى ثاني يوم العصر والناس التي تتقاتل للعبور لرؤية نعش ناصر[٥٠]، ثم يختم كلامه وهو يلف سجائره:

- عشنا لحد ما شوفنا البلد مش بلد.

ترك السيجارة في حجر الجلباب، والتفت إلى أبي:

- ألف لك سيجارة والا تاخد سيجارة مكنة.

- لا لف

لف سيجارة أخرى ثم أشعل واحدة وناولها لأبي، وأشعل الأخرى ووضعها في فمه، وبحركة لا إرادية نفض حجر الجلباب..

ثم دس علبة اللف في جيبه الداخلي، وبينما كان أبي يقلب في كيزان الذرة المستلقية أمامه.. فيأتي بالوجه الذي كان ناحية الأرض فيجعله في ناحية الشمس وهكذا، راح عم سيد الحسيني يتملى في دخان السيجارة وكوب الشاي.

- والله سمعت أن الحكومة جاية النهاردة العصر عشان موضوع المركبة السياحية.. قال ذلك وهو ينظر إلي.

كنت أتوقع سيلا من الأسئلة.. ولكن عمي سيد صمت حتى انتهى من سيجارته والشاي.. ثم ضغط على الحروف كثيرا كأنما يقدها من جبل مخفي داخله كل الذي يظهر منه أنه مؤلم:

- يعني عملية تبليط تانية..

ثم صمت إلا من حشرجة النفس المتردد فى صدره.. وأضاف:

- والله الحكومة دي تعملها[٥١]

***

لم ينتصف النهار بعد.. ما زال الناس قادرين على الحكي، ومازالوا يملكون ترانيم اليوم الطويل المشبوح بين الشمس والظل.. اختفى الشباب من القرية فلم ألمح واحدا منهم.. وفي صلاة الظهر اصطف ثلاثة خلف الشيخ.. كان واحد منهم يؤدي صلاته جالسا.. وقفت وأنا أسرب الماء من وجهي ويدي على الحصير الخلفا من تحتي فتمتصها ليس في سهولة ولا في يسر، بعد الصلاة التفت إلينا الشيخ[٥٢] وقال لنا

- البلد يمر بكرب عظيم الزموا بيوتكم اليوم، ولا تغادروها حتى ولو للضرورة القصوى.. ونهضنا مسرعين..

على الرغم من التعود على الصمت المطلى بلون التراب في القيلولة في تلك الفترة من السنة.. لكنه اليوم له معنى مغاير كان الصمت مصحوبا بقلق وترقب وحزن.. الأبواب أصبحت أكثر كآبة كالحة في كل شيء، والشمس أيضا متعامدة على الرؤوس.. لا أحد يجرح هذا الصمت[٥٣] لا صبية يغدون أو يروحون ناحية النيل الصامت حد التوقف عن الجري.. كل حين نسمع همهمات رجال فنجري ناحية الفتحات والشقوق والفوارق في أخشاب البوابة الكبيرة.. نتزاحم وننظر فلا نرى سوى أقدام تهرول سريعا[٥٤]

علمنا بعد ذلك أن في صلاة العصر لم يخرج أحد للصلاة، وصلى الشيخ أبو زيد[٥٥] منفردا.. وفكر كثيرا إن كانت صلاته الآن صلاة فرد أم صلاة جماعة؟ لكنه لما هم بالخروج من المسجد وجد الطريق مسدودا بشباب يرتدون لونا واحدا أسود.. ووجوههم بريئة ونظراتهم تائهة.. وفي نفس واحد وبنبرة غير متضحة تماما قالوا

-كلم الباشا..

كان المسجد محاطا بثلاث سيارات أمن مركزي وعربتي جب، اصطفت على طول الطريق حتى النيل.. كان الضابط في صورة تقليدية لخيال الرائي.. يدخن وهو يضع ساقيه على تابلوه السيارة ونظارة شمسية ضخمة تلتهم ثلث وجهه، وعضلات مفتولة.

قال ولم يلتفت - كان يقلب مسدسه الميرى - ناحية الشيخ:

- من هم الذين اجتمعوا في المسجد ودبروا للأمر؟

وما زلنا مع الصورة التقليدية فقد كانت اللكمات تترك أثرها في وجه الشيخ المريض قبل أن يبدأ الكلام.

لما انحنى يتحسس أسفل بطنه.. وجد نفسه ملقى على الأرض تتقاذفه الأقدام.. من كان يصلي معك على الدوام في المسجد؟[٥٦] ورغم أنه أجاب لكن الأقدام لم ترحمه أيضا قبل أن يلقوا به في سيارة الترحيلات التي تصحبهم دائما..

***

يا ليل يا ليل يا..

المساطيح وحيدة هذا المساء تحدث نفسها[٥٧]، أو تحدث القمر الساكت.. قد تسأله عني لا تعرف أني مختبئ في البيت يأكلني الخوف، أنا الساكن في قلب الحدث، ما زال اسمي يتردد في سماء القرية، والشيخ أبو زيد يسحب من ساقيه بين الجنود، يقول "لا أحد يصلي سوى الأطفال اسمي يتصاعد برائحة الدم من فم الشيخ.. تلتقطه العصافير والغربان.. وتأتي إلي مسرعة.. فتجدني مختبئا خلف الزير فقد سبقتها الريح وأخبرتني.. كان الصوت عاليا انفجر في الفضاء وصحبه صرير كان يصرخ.. يصرخ.. لا يصلى معى سوى فلان وفلان[٥٨]

***

عندما كسروا الباب الموصد وحطموا الزير كنت أكثر شجاعة مما توقعت؛ إذ برزت لهم قبل أبي الذي تمدد على الأرض فداسوه بأقدامهم وصوت أمي المزق يزداد ابتعادا..

- اسمك ؟
- عوض معبد
- من دفع لك ؟
- لا أحد

لماذا تسلقت المركب ؟

- لم أفعل شيئا
- تسب البلد ؟
- لا . . لا
- كيف وأنت تسب دائما ؟
- أسب نفسي . . والدين .

مفترق طرق[٥٩]

عندما لمست قدماها أرض القنطرة الجديدة، وأدركت أنها قد دخلت زمام البلد، تنفست بصوت مسموع يكاد يصل إلى حد الشهقة، ولامست النسمات وجهها فأزاحت عنه الملس الناعم.. وصارت حركتها أكثر ثباتا على الأرض وأبطأ.. وراحت تدور حول نفسها في حركة سريعة وغير متزنة.. تدور وتضحك تشاركها الأرض في الرقص والدوران، آه من الأرض.. تلك المسكونة بترانيم اللقى والفراق.. الأرض أول الذي يدرك وهج نفسك، وآخر من يسمع أناتك المكتومة.. عجيبة.. تصعد إليك رائحتها من داخلك كي توقظ الذي قد ظننته مات.. تلقي في طريقك رائحة الأشياء والرفاق وأنت القديم[٦٠]

لم تشعر هي بالخوف من حلكة الليل.. ولِم الخوف وكل شيء كانت تعرفه من أول القنطرة القديمة التي تم هدمها وحتى آخر حدود

أرض الحوَّاش غربا.. التي خاضت حتى في ماء النيل.. خالطتها في ليل طويل، وحدثتها عن أحلام تعرف مسبقا أنها مجرد أمنيات طفلة لن تتعدى حدود الغيط المجاور.

هي على الطريق الآن، نفس الطريق التي سلكتها بدون وعي أو معرفة.. سألت كثيرا وكانت الإجابة زغرودة ممطوطة في بلاهة، إلى أين يذهبون بها؟ ظل السؤال عالقا في سقف بيتهم[٦١] لديها قدرة خارقة على مخاطبة الأشياء، تشعرك أن مسًّا خفيًّا أصابها، فهي تقيم عالمها المنفصل منذ صغرها، مع النخيل والصفصاف، وعروستها القطنية.. في تلك الليلة خاطبتهم جميعا ولم تتلق اعترافا أو مواساة أو أي شيء.. مسدت شعر عروستها القديمة لكنها ظلت على صمتها، ثم تكشف الأمر فإذا بها في بيت جديد.. غرفة وحيدة على سطح مجرب مسقوفة بجريد أخضر شواشيه تطل على الشارع الضيق.. وما زال لون الطينة مائلا للخضرة الخافتة يشعرك أنه مبتل بالماء منذ قليل، هي التي كانت ما تزال تلعب مع الصبية حتى عشية ليلة الحنَّاء.. أمسكوا بها عنوة وهي تحاول الهروب حتى تكمل دورها في اللعب.. بعد يوم واحد تجد نفسها ملزمة بمتطلبات رجل يفترسها كل ليلة ثم يلفظها[٦٢]، في بداية الليلة رأته عملاقا يحتويها بيدين طويلتين وهي لا تعرف لماذا؟ فلما أدركت شيئا فشيئا رأته قزما ضئيلا عجوزا يقضي حاجته في سرعة ثم يتركها على طرف السرير كي يدخن في بلادة ظاهرة.. بينما تظل هي تأكل جسدها في ليل ممل كئيب.. كلما ضاقت به طال أكثر..

لم تقو على الاستمرار فاشتكت له وصفها بالعاهرة، غادرت البيت إلى بيت أهلها.. شهرين لم يسأل عنها.. وعندما لم يمر شهرها الأول بسلام كما يحدث كل مرة.. قلقت.. وفي الشهر الثاني اشتكت لأمها فأيقنت.. زغردت الأم طويلا وانتحبت هي أكثر في الليل التفَّت في ثوبها الأسود وملسها.. وتحركت على الطريق بينه وبينها مسافة تكفي لعبور ثلة رجال وجيش من الهواجس.. هو في الأمام وهي خلفه.. لم يتحدث إليها ورضيت هي بذلك.. بل راحت تغمض روحها عنه، لكن في البيت كان ينتظرها الذي لم تتوقعه.. قال لها وهو يتباطأ في النطق:

- أنا لا أعرف أن أعيش بلا زوجة.

استقبلتها فتاة تكاد تكون أصغر منها عمرا، وراحت تنفض عنه ملابسه بسرعة كمن تعرف ماذا تصنع، وتلقي إليها نظرات سريعة.. حينها أدركت ألا مكان لها الآن في هذا البيت.. والغريب أنها شعرت بالارتياح ولم تكره المرأة الأخرى، بل أشفقت عليها، حتى إن المرأة الجديدة حارت في فهم تلك الابتسامة التي على وجهها.

باتت ليلتها كما تيسر لها في أي مكان بالبيت.. وقبل أذان الفجر كانت على الطريق(٦٣)

***

كان عوض معبد نتاج تلك الليالي القلقة والطرق المتشابكة.. كأنما ولدته على الطريق.. لا يسكن إلى دار مغلقة إلا كي تهدأ قدماه من أثر الطريق ثم يعود إليها.

كانت قوارب الصيد الخشبية الصغيرة المطلية بالقار تتكئ بصدورها على الرمال الناعمة في يسر مصطفة فى نظام صنعه النهر متباعدة بما يسمح بجلوس رجل يغسل يديه أو يتوضأ.. بينما الشمس تقاوم غيابها.. فيتسع قرصها ويضيق.. وتتحول إلى علامة وميقات للصائدين المنتظرين.. فقد حان أوان الصيد الليلى في موسم (الكَبَك) حين تتراقص الشمس .بين الحضور والغياب، ويقف كل صياد على ظهر قاربه ينتظر سقوطها الدموى خلف جنينة الزقلة فى الغرب[٦٤]

***

انحدر عوض معبد[٦٥] من التلة الصغيرة، وعيناه الضيقتان فى وجهه الأسمر تعرفان طريقهما جيدا في هذا الحيز من النهر، أخرج من جيبه الصغير بعض ثمرات الرمان الأخضر، وهو كعادته يسترق السمع دائما لكل الذي يحيط به.. فيمشي وكأنه يلقي بأذنيه إلى الأمام، عادة قديمة ورثها عن جدته لأمه[٦٦]، كان يحبها جدا، وهي تمسك فيه كأنه قدرها الذي عافرت معه من قبل، فقد كان رجلها الوحيد بعد أن دفنت خاله وعادت خالية الوفاض إلا منه، يمسك كعلقة في ملابسها أينما تحركت وراءها.. في البداية كرهته وكانت تضربه كثيرا.. ولكن فى مساءات الحزن تشده إليها وتحضنه.. ولما جاء أبوه كي يأخذه، بعد أن عاتبه الناس على ترك ولده، دخل وحاول أن يقول أى شيء، لكنه لم يقل، فقد وجد كائنا ضئيلا لا يعرفه ينام فى حجر جدته، حاول أن يمد يده له، وأن يضمه.. لكن

الصبى دخل أكثر فى جدته.. وعرفت هى أنه لن يقول شيئا، فقالت هى[٦٦٧]، ومع هذا عندما كانت تغضب عليه تصيح فيه:

- يا رباية الشوم

وفى كل لياليها التى صار البكاء على الغائبين طقسها[٦٨] بعد أن تغلق البوابة الكبيرة.. تبحث عنه وتجعله على مقربة منها، وفى عز البكاء تمد يدها تلمسه، وتتأكد أنه يتنفس، وتمسد له جسده الصغير، قد تنزل قطرتان من دموعها عليه فيمد يده الصغيرة يلمسهما ويمسحهما على صدره فى دائرة واسعة، ثم يقارن بين الجزء الناشف من جسده والجزء المبتل بالدمع.. إلى أن جاءت تلك الليلة التي لم تكد تكف فيها عن حصتها من البكاء الليلي حتى أحست به يربت عليها

- ما تزعليش يا أمي، أنا ابنك.

كادت تطير من الفرح، ضمته وشمته وباتت ليلتها تحتضنه وتبكي:

- طبعا ابني وهو فيه حد غيري شال وحط.. وضم ولم..وخطًا بيك عتبات البيت المكسورة..

***

أعلن فجأة أنه لن يذهب إلى المدرسة..

لقد اختلفت الأمور وتحقق الذي كان يتخوف منه، فسوف يوقفون حصة التغذية.. ولن يحصل على نصيبه من الجبنة الرومي وقطعة الحلاوة الطحينية، ورغيف عيش الطابونة.. كانت قد سرت

إشاعة من أول نصف العام بذلك.. لكنه كان يريد أن يتأكد، فقد خشي أن تكون مجرد شائعة، لكنه الآن أدرك حقيقة الأمر، فلن يستطيع أن يسرق الصبية الآخرين أو أن يفرض عليهم شيئا بالجبر، مما كان يفعله قبل ذلك، لذا فالمدرسة لم تعد بذات قيمة له، لكن السؤال الملح الذي راح يفرض نفسه: ما الذي سيفعله الآن؟[٩]

***

عالق هو الآن في أحد قوارب الصيد يعيد ترتيب (فلْ الشباك)، ويربط (الجراكن) الفارغة جيدا بجوار الفلْ على مسافات معينة كي تظل تطفو على سطح الماء.. لم يكن هذا الأمر على رغبة حقيقية منه.. بل هي رغبته الملحة في ترك البيت في هذا الوقت المسكون بحديث التحسر لدى الآخرين.. فقد أيقن مبكرا رغبته الشديدة في الانطلاق بعيدا عن كل شيء سوى نفسه، يقف بعيدا كي يراقب ما يحدث.. ثم في الوقت المناسب يأخذ أكبر قدر من الغنيمة[٧٠]

يجلس الآن في قلب الفلوكة الصغيرة، بينما يبدأ فرج محمدين[٧١] في (تفريد الشباك) يحاول أن يجعل الأمر منتظما وفي الوقت نفسه سريعا.. وبين الحين والحين يصرخ في ابن أخيه الذي يجلس بين المجدافين كي يسرع، ثم يعود ليسب عوض معبد الذي تناسى إسقاط الجركن فعلق في خشب الفلوكة.. نحو نصف ساعة من العمل المرهق الذي يقطعون فيه النهر عرضا، ثم يعود الأمر إلى الهدوء، ومن بعيد يسمع صوت الصيادين الآخرين، وقد حال الظلام بين رؤيتهم[٧٢]، وإن كان يعرف من خلال دوره من

السابق له ومن اللاحق به، أخذ فرج في إشعال منقد النار.. وراح يجهز الجوزة بأن يملأها من النيل ثم ينفخ فيها ويعيد اختبارها حتى يستقر على قدر معين من الماء فيها، ثم يخرج المعسل من كيس قديم ربطه جيدا حتى لا يبتل ثم يرصه جيدا في الحجر الفخاري المحروق جدا والمتشقق من الداخل وقد تآكلت أطرافه، وبعد أن وضع بصات الخشب الصغيرة، راح يعيد ضبطها من جديد ويثبت الورقة الصغيرة التي كان يستقر عليها الحجر بأن ضغط عليها بأسنانه، ثم راحت قرقرة الماء في الجوزة ترتفع وبدأ فرج في الانسحاب رويدا من حيز الفلوكة الضيق كي يحلق بعيدا في أي مكان(٧٣)

كان عوض يعرف تلك الحالة التي ينتهي إليها فرج، وعادة ما يستغلها لإخفاء سمكة صغيرة بين خشبات القارب.. وفي شرب القليل من الشاي المحفوظ في ترمس صغير متهالك ذبلت نقوشه التي كانت تمثل طاووسين كبيرين متقابلين، وحال لونه الأزرق إلى لون باهت.. كان الترمس هو كنز فرج الصغير فهو كل الذي أتى به فرج من رحلته الأولى والأخيرة إلى العراق.. فقبل أن تدفأ قدماه في أرض التمر والغاز قامت حرب الخليج.. وكأن صدام حسين كان يعرف بقدومه ويعد له مفاجأة.. هو الآن على الحدود مع سوريا يحاول المرور وفي يده جواز سفر وورقة صغيرة بما له من حوالات في البنك وترمس الشاي.. بعد تعب وجهد وصل البلد.. لاحظ وهو يستقر في منضرة البيت ويتحدث عن الأهوال التي رآها في طريق الرجوع وعن الموت الذي كان قاب قوسين أو أدنى منه في كل شبر،

والسير مئات من الكيلومترات لاحظ أنه كان يتحدث ويلوح بترمس الشاي[٧٤]

***

البرق يسبق الرعد، فى ثنائية الضوء والصوت. والضوء يكون أكثر وضوحا في الظلام.. والعين ترى ما تخشاه.. ويمد فرج عينيه للأمام البعيد فيرى الضوء القادم يظهر ويختفي، يخاتله كأنه لبيت قديم.. والصوت يمزق السكون النسبي للنيل.. لو كان فرج يجلس الآن في بيته مثلا لصاح فزعا.. ولو كان يجلس على الطريق لهم بدخول بيته.. ولو كان في طريقه لقضاء حاجة لعاد.. لكنه في النهر لا يملك سوى البقاء، والبرق والرعد ليسا عاديين.. إنه طنين بعيد يأتي منسلا بين طيات الهواء.. فيصطدم بالجانب الخشبي للقارب.. يسبقه الضوء المنعكس على الماء.. بدأت تتضح مركبة ضخمة تتهادى فى قلب النهر واهتزت "الجراكن العائمة بما يعنى الاضطراب واقتراب الخطر وأصبح الصوت الآن يصم الآذان..

انتصب فرج واقفا وصاح:

- يا ولاد الكلب ستتمزق الشباك.

وهجم على مقدمة القارب.. وأخرج كيسا من البلاستيك الرقيق بداخلة قطعة قماش قديمة باهتة فضها فاستقر في يده "فرد حديد صلب ثقيل.

وأطلق الرصاص..

***

ضاقت الحلقة بعد أن عبرت المركبة السياحية فى كبك حمودة السيد ومزقته.. وبسرعة انتصب فرج محمدين.. وجلس بين المجدافين وبدأ يتقهقر بالقارب سريعا بينما عوض والطفل الآخر يجمعان الشباك بسرعة حتى انتهيا منه..

أخذ القارب مكانه حول المركبة السياحية.. واختفى عوض معبد فجأة(٧٥)

***

فى التحقيقات اكتشف فرج محمدين أن "الرجل الذي يحقق معه لا يعرف عنه شيئا..فهو غريب عنه.. حتى اسمه لا يعرفه فقد طلب منه أن يكرره مرتين.. لذا راح فرج يحكي.. ويحكي.. عن كل شيء إلا المركبة السياحية..

الرجل الغامض الذي يجلس فى نصف ظلمة ويحاول أن يجعل صوته جافا ولغته حادة جارحة لاحظ أن فرج لا ينتبه إلى تلك الطريقة.. فغير نبرة صوته للمسامرة.. يحاول أن يسحب فرج ناحية الموت والرصاص فى النهر فيحكي فرج عن الموت والرصاص فى بلاد التمر والغاز..

فى النهاية ظن به الرجل لوثة..فأطلقه.

- اسمك ؟
- هاشم
- أين كنت ؟

- الصمت لا يفيدك

- تحدث

- كنت تلتقي من ؟

السوق[٧٦]

عادت الذاكرة رويدا رويدا إلى الفتى الساكن في صمته المكتفي بترانيم روحه في سكون الليل.. كانت النجيمات الصغيرات اللواتي يخادعن القمر ويحاولن أن يظهرن بجواره في تلك الليلة، ما يزلن يكابدن في المحاولة.. على حين راحت عيدان قصب السكر تخاتل الهوام الرابضة فيها وتتصنع الثبات.. لم تكن تدرك أن الوقت في هذه الليلة يرقص على حافة الفجر هذه الجنية التي غازلتك على حين غرة لن تستجيب لتوسلاتك اللعينة، ولن تلتقيك أبدا، ما لها ولجنونك المعروف، قد تكون أعجبت بك أو استغربتك، أو شاغلتك كي ترصد فيك طفولتك التي تخفيها خلف تجهمك الظاهر، ليس شرطا أنها متيمة بك.. وأنت لم ترحم وهجها الساطع في روحك.. فمنذ اقترفت بسمتها الأولى في

حقك.. وأنت تخصها بنصيبك من الحلم ومن الراحة الجسدية.. بنت الجنية إن يهجم خمل النوم على عينيك تقل للنور المتخفي: "تصبحين على خير إن تذهب إلى أسيوط تشاهد دكاكين بيع الفساتين والجيبات.. وتتخيلها في كل فستان يعجبك وفي كل امرأة تبتسم مرت في الشارع، تقل لها "أتهجد بصلاتك في ليلي كيف تلبستك هذه الحورية؟

***

في هدأة صبح مكرور إذ يلفظك البيت سريعا تحمل رائحة الماء النيلي على جسدك ممزوجا ليس بيود كالبحر لكن بالطين.. فرائحة الطين أقوى من رائحة الماء.. ما زال الفجر قريبا لم يرحل إلا منذ قليل.. وأنت ما زلت تقف أمام الباب الخشبي تتأكد من كون الشال الكشمير محكما حول الرقبة.. وعلى كتفك ترفع كيلتين من الغلة وعشرة أرطال السمن البلدي، فسوق طما" ليست بقريبة..

بعد قليل تأخذ مكانك في سيارات النقل.. لا فرق بينك وبين معيز على الدرديري، أو قفص البط الذي ستبيعه زينب.. يبدأ الحديث بتحريك اليدين بحركة سريعة والنفخ فيهما لاجتلاب الدفء ثم إحكام شد الشال على الرقبة.. قبل أن يدور الحكي عن نوبة ماء الري التي لن تكفي في فترة "البويغ"(٧٧)، ويتخللها كلام كثير عن فرح قريب يعد، أو مريض يرتب أوراقه الأخيرة.. عادة في تلك الحالة يسكنك الصمت الذي تحرص على أن تستدعيه إليك.. تسمع لكن لا تملك ما ستقول.. قد تغمض عينيك لتحط بعيدا في

مدرسة مفقودة من روحك.. ظل سكرتيرها يضربك على ظهر يديك كل صباح يطلب مصاريف الكتب.. وأبوك يلعن اليوم الذي لبست فيه المريلة والبوط البلاستيك، وعملت فيها بتعرف تقرأ أية جملة.. كان السكرتير قد مل الضرب في اللحظة نفسها التي كرهت أنت فيها تلك المدرسة الملعونة.. لكن كل صباح في لسعة برد الشتاء تلبس مريلة الحلم وتبحث عن كتبك تحت (الدكة) الخشبية القديمة، فتجد شريطا من الشباك يحتاج للرصاص والفلْ، كي يعاد ضربه[٧٨] من جديد.

تنحدر السيارة وفي حركة دائرية مملوءة بالمخاطرة تقف على حافة الشط.. تنتظر العبارة القادمة من بعيد من الناحية الأخرى في هذا الغبش.. ورغم أن الدنيا لم تكن فى فصل الشتاء.. لكن فى صباحات أكتوبر يحمل الجو المفتوح نسمات باردة.. وعلى مقربة يجلس خفير العبارة أمامه ركوة نار، ويتحوم حوله العشرات المنتظرون، ليس شرطا أن تعرفه أو يعرفك كي تطلب الدفء.. وبسرعة قفز على الدرديرى وصابر حسانين.. واتجها إلى النار.. واتخذا مكانهما في الدائرة وهما يسلمان على من يعرفان ومن لا يعرفان.. بينما ظلت النساء في السيارة.. واتجهت أنت وحدك إلى الطرف البعيد ناحية النيل.. يخترق أذنك في هذا الصمت صوت محرك العبَّارة الذي يقترب رويدا رويدا ناحيتك.

***

الأسواق في قرانا نعرف مواقيتها جيدا، وهي عادة لا تتعارض في أيامها، فكل مجموعة قرى لها يوم سوق، والواحد أول ما يسلك

طريق الأسواق يكون كمن يبحث عن شيخ في إحدى الطرق الصوفية.. فيذهب إلى كل الأسواق ويقارن فيحسب المصاريف أولا ثم ينظر إلى ما يبتغيه من المكان.. وأخيرا يختار ما يناسبه وليس المكتمل.. فقد يضحي بالوقت فيذهب إلى سوق طما أو البداري؛ لأنه سيجد ما يحتاجه رغم المصاريف.. ورغم أنه سيضيع نصف نهار في السوق، وقد يذهب إلى سوق قريبة كي يكسب وقته، وهناك من يحدثك:

- إن لكل سوق سمة خاصة وبضاعة متخصصة.

وعموما سينتهي به الأمر وقد ارتاد سوقا واحدة أو اثنتين على الأكثر، وهذا لا يمنع أن هناك من يرتاد جميع الأسواق لغاية أو لأخرى.

كانت لك رؤية مختلفة في سوق طما، فالرؤية الأولى تجعلها ليست بأفضل الأسواق بالنسبة لك، فهى تقتل يومك، وأنت عادة لا تطلب شيئا لن تجده في سوق أخرى، لكن في طما يكمن السحر، سحرك القديم الممزوج بالخوف (القطار) ترجفك وطأته الأولى بصوته المزعج قبل أن تعبر القضبان إلى محطته فتلمسه.. وتكاد بيديك أنت المطرود من جنته تحتضنه إذ لم يقدر لك حتى الآن أن تنتقل عبر بساطه السحري إلى مدن الضوء والحلم[٧٩]

***

فى أثناء مرورك في الشارع الضيق هالَك أن تسمع اسمك يتردد من أحد أزقة الشارع.. فالتفت لترى مطعما يتكون من حجرة ضيقة

ليس لها أي مكان يسمح بتجدد الهواء.. ويوجد عدد من المناضد الخشبية المتهالكة التي لن تعطيك أي براح لحركة رحبة.

***

كان المطعم تقريبا ممتلئا برواد السوق الذين لن يكتمل سوقهم ما لم يجلسوا في مطعم ويأكلوا الطعمية، فتجد الرجال يجلسون على مناضد خشبية مهترئة لا يكاد يحفظ سقوطها إلا سيقان الرجال الجالسين حولها.. بينما النساء يفترشن المكان الضيق خارج المطعم، وقد ترددت أنت كثيرا في البداية لكن..

هل التقت عيناك عينيها في آخر المطعم.. فتزين في مخيلتك ورأيته متسعا يدخله الهواء الرطب.. ثم يعبره مسرعا بعد أن يلامس وجهك وقلبك، وبعد أن ينقل إليك همسها الرقيق إلى جارتها بأنك لا تزال كما أنت حالما وتائها؟!، المكان تألق الآن وقد تناسيت أنك لم تحبه قط، وتراه كئيبا مقبضا يكتم على أنفاسك ولم تجلس فيه سوى مرات قليلة مُكرها حينما كنت لا تقدر على الفكاك من إثر صديق ملح.. حتى الحاج إسماعيل صاحب المطعم الذي أطلق عليه بطريقة غير رسمية مطعم (القاوية) كان يعرف أنك لا تحب المكان.. كان أقصى ما تفعله أن تشترى سندوتشات الفول والطعمية وتبعد لتأكلها في أي مكان.. ما الذي جعلك تجلس محيطا الطاولة القذرة بقدميك وتصيح في صبي الحاج إسماعيل بأن يأتي؟ ولم تجاهلت على الدرديري الذي كان يجلس في مفتتح المطعم معتمدا صوته العالي وصخبه المتواصل في اذدراد طعامه؟ هل

خشيت أن تضاف عليه أو أن يحسب هو عليك؟ أنت المسحور منذ قليل بهمس العيون، ولم طلبت من زينب والنسوة الجالسات معها أن يأتين ليجلسن داخل المطعم بدلا من افتراش الأرض بهذه الطريقة؟

كانت تقريبا هي الوحيدة التي تجلس داخل المطعم ومعها أخرى عجوز تخفي وجهها تقريبا في الحائط المقابل.. وهي على العكس منها تفتح وجهها تماما لمدخل المطعم.. أم تراها كانت تترقبك أنت؟ ساحرتك التي تتبعتها طويلا في مرات سابقة حتى أوقفتك بعينيها وتقطيبة صغيرة على وجهها.. نعم صغيرة لكنها جارحة:

أيها العاشق لا تتبع روحك..

لم تعلم هى أنها قتلتك بهذه الحركة الصغيرة.. أنت الذي ما تبعت خطاها إلا بعد أن مازحتك أهدابها.. وحين أسكنت يدك في يدها.. وأنت تمد يدك بالنقود لها، حينها أحاطت بيدك وتركتها أنت تودعها الأسرار.. أسرار الذين رحلوا ولم يدركوا تلك اللحظة.. بعد هذا تعقد لك جبينها وتقلب لك عينها.. لم تكن تعرف عنك سوى أنك صياد بقلب شاعر هكذا حدثها صديق لك، قال لها

- إنك تكاد تبكي وأنت تخرج السمكة من براثن الشباك، تحاول ألا تنظر في عيني السمكة بخاصة سمكة (الشفاق) السمكة حزينة العينين..

في الحقيقة فعلها جرحك بشدة فانتهيت.. وإن بقيت كما أنت تتبعها روحك وتبحث عنها بين الناس.. في كل سوق تكتفي برؤيتها ساحرة كما هي.. حتى كان اللقاء على حين غفلة منك همست في أذنك:

- إيه.. فينك؟

ومع ابتسامة خفيفة قالت

- لم أعرف أنك خواف لهذه الدرجة..

لم تفهمك هذه المرأة لكن ليس مهما الآن الفهم المهم هو الرضا.

كان الصمت هو نصيبك من الحوار الذي تم بينكما، امرأة تملك القدرة على لكزك في ذراعك في حال تنظر في عينيك.

***

قبيل العصر كان السوق على وشك الانفضاض.. فلا تكاد تجد إلا نفرا قليلا من البائعين المشغولين بترتيب أشيائهم المتبقية.. وقد تركوا الأماكن محجوزة بالعربات الخشبية الفارغة.. بعد أن قيدوها بالسلاسل الحديدية الطويلة.. أما أصحاب الدكاكين فما زالت الأبواب متطلعة ناحية الشوارع لكنها صامتة.. حينها كنت أنت تتحرك بخفة كي لا يلمحك أحد.. على الرغم من أنك كنت متأكدا أن هذه الشوارع الخلفية لتلك المدينة القديمة في هذا الوقت المتأخر لن يمر بها الذين تخشاهم.

***

كنت أنت تتبع ظلا من بعيد يشير إليك.. وكلما ابتعد عنك وقف كأنما يقضي حاجة ما.. ثم يلتفت إليك فتتلاقى الأعين، تجد

نفسك فجأة وقد قطعت العديد من الشوارع لتستقر في حارة جانبية ضيقة لا تعرف كيف يدلف إليها قاطنوها، دخل الظل الباب الثالث فدخلت. كانت الظلمة نائمة على كل ما في المكان فلم تبصر شيئا.. فجأة شعرت بمن يلتصق بك.. وأحسست بلدونة ما غير متوقعة.. ارتفعت درجة حرارتك.. غاصت عظامك الناتئة في تجل بض، وسمعت هسيسا يصطدم بوجهك:

- ما بك؟

يبدو أن المفاجأة كانت قد أصابتك في مركز الإحساس منك جمدت.. فلم تقو على إتيان أى فعل فتراجعت للخلف وأنت تتمتم:

- لا ..لا شيء.. وأكملت بصوتك المختنق:

- أين النور؟

حينها قالت لك باقتضاب أنثوي حاد:

- هسس..

أخذت هي يدك وتركت لها أنت قيادك.. لتجد نفسك على أولى عتبات سلم خلفي ضيق ودائري بشكل خطر يكاد يدور مع كل سلمة وأخرى.. عشر خطوات لأعلى ..لأعلى.. نعم أنت ترتقي الآن.. كانت تتعمد أن تترك جسدها الفائر يلكزك كل حين.. وأنت القابض على غصة حلقك تحاول التماسك.. كم أنت بعيد أيها الأعلى!.. كم أنت قريب أيها الأعلى!.. ثم وجدت نفسك في حجرة صغيرة خافتة الإضاءة.. وأخيرا تركت هي يدك..

فهويت إلى أقرب مقعد خشبي موجود بجوار السلم.. ثم غابت.. وأرهفت أنت السمع لذلك الاضطراب الهائل الذي يعتمل بداخلك.. وكان تنفسك سريعا وغير منتظم، كل ذلك وقد صاحبتك ارتعاشة صغيرة تتناوب عليك بين الحين والآخر فجأة راعك ما أنت فيه وكأنك كنت مسحورا أو نائما.. ما الذي أتى بك إلى هنا؟ كيف اتبعت تلك الإشارات السريعة خارج المطعم؟ وكيف تخلصت من تلك العيون التي تعلقت بك؟ وكيف أرسلت هي صاحبتها بعيدا؟ أين أنت الآن؟ وأين هي؟ هممت واقفا وخطوت ناحية الباب المفتوح على السلم تلوذ بأي شيء في سبيل الفرار.. حينما أوقفك صوت ساحر يأتي من خلفك.. وانفتحت طاقة من نور أرست بهرجتها تحت قدميك وعلى أولى عتبات السلم.. كانت النبرة ساخرة ومستفزة:

- أكان علي أن أقيدك؟

تلعثمت أنت لأنك لم تدر كنه هذا البرد الشديد الذي شعرت به.. والعرق الذي راح يتفصد عن جبينك حال التفاتك.. فقد سحرك ما رأيت.. كان ضوء الشمس الهارب يتخللها.. كان الضوء يشف من جسدها.. حيث تفتح الشباك قليلا وتقف في لا شيء شفاف.. فينعكس الشعاع القادم من خلال الشباك المفتوح قليلا عليها فيخترقها وينتقل إليك.. ما كل هذا البذخ الصارخ فيها.. فجأة وقفت تحركت.. .نظرت اقتربت ..لامست..فما كان منك إلا أن صمت ..وعرقت وارتعشت.. وتلعثمت..

وسكت.. فعادت هي جذبتك.. وشمتك.. وأنت تراجعت.. اصطدمت.. هي ضحكت.. غابت، أنت هويت لم يكن الكرسي الخشبي ببعيد عنك.

بدأت تستعيد أنفاسك قليلا وتهدأ.. تنقلت عيناك في الحجرة الصغيرة التي لم تفارقها.. بينما تختفي هي في حجرة أخرى، ويأتيك صوتها كل لحظة من داخل ليس ببعيد.. كانت الحجرة على صغرها منظمة.. فهناك حصيرة بلاستيكية بديلا عن الحصر الحلف التي في بيتك.. وهى تقريبا تغطي كل أرضية الحجرة، وهناك أسفل الشباك توجد كنبة خشبية طويلة يمكن أن يجلس عليها أربعة رجال.. وعند الباب حيث تجلس كان هناك كرسيان خشبيان.

تسللت إليك رائحة طعام وصوت قرع أطباق واعتراك مع الماء.. وفي تلك الأثناء خرجت إليك أكثر من مرة وهي مبللة اليدين والثياب.. وقد شعرت بالاعتياد السريع على الأمر وكأنك قائم نائم فيه.. حاولت أن تتشاغل عن جسدها الفائر ورائحتها المميزة.. فارتفعت عيناك في الحجرة أعلى من الأرض ورحت تحاول أن تقرأ الآيات القرآنية التي على الحائط في براويز مذهبة الأطر ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وفي مواجهتك كانت "قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، كانت الحيرة والدهشة قد تقاسمتا الأمر عندك، ما هذا الذي يحدث هنا؟ من تلك المرأة التي تكاد تكون سحلتك بجسدها ناحية هذا البيت الصغير، وما هذا البيت الشائك؟ وما الآيات القرآنية تلك؟!، أخرجك من هذه الحيرة صوتها:

- مستعد للطعام؟

قالتها هذه المرة بحيادية بعيدة عن تلك السخرية أو الإغواء.. شعرت كأنك سمعتها من قبل.. هذه النبرة المحايدة سكنتك قبل ذلك في مواطن كثيرة.. شعرت معها بالراحة أكثر مما شعرت مع جمل الإغواء القلقة.

كان الطعام شهيا.. تكاد في كل لقمة تذكرك بأنك لا تأكل، كم تحب أنت هذا الود وتبحث عنه.. كانت ما تزال في غلالتها الساحرة.. وأنت مفتون بالجلوس معها.. ضحكت وهي تقول:

- لاحظت في المطعم أنك تقريبا لم تأكل شيئا..

كان صمتك بقدر ما يحيرها يرضيك.

***

كنت تعلم حال عودتك أنك لن تجد العبارة تعمل في هذا الوقت المتأخر لذا كان عليك أن تشق طريقك في هذا الفضاء الوعر إلى مرسى المراكب.. أو أن تجد واحدا من صائدى الكَبك يكون قد جرفه التيار إلى الخور الغربى.. فبدأت طريقك بأن أخذت سيارة تقلك حتى "قاو عيسى وبعدها أصبح لزاما عليك أن تأخذ الطريق سيرا على الأقدام في اتجاه النيل.. كانت طريقك تمتد في وسط أراضٍ زراعية متسعة.. وكنت تدرك أن أمامك ما يقارب الساعة كي تصل إلى البر الغربي من النيل، حينما دخلت الوادي الرملي القديم بالجانب الغربي وجدت المجرى القديم الذي هجره النيل فجأة وليس

بالتدريج كما يفعل عادة.. فما زال الانحراف قائما.. وما زال إحساس الماء يناغش قدميك على البعد.. وما زالت الريح تصطك فيه بطريقة مختلفة.. هجره النيل واتجه ناحية الشرق.. كاد يبتلع الشرق الضيق ليحوله إلى شريط رفيع يتلوى على البعد بين الماء والجبل.. أوشك أن يضيع لولا بأس ساكنيه.. كنت تلحظ أقدام الآخرين الذين مروا في الوادي نهارا.. ولما كانت الشمس قد غابت بدأت تصعد الوادي الرملي.. وحاولت أن تمد الرؤية لديك حتى الطرف الشرقي.. وبعد أن وقفت على البر الغربي صحت بأعلى صوتك

- يا ريس حسن

ربما ثلاث أو أربع مرات قبل أن يجيئك صوت مختنق لكنه حاد ونافذ من الشرق يخبرك بأن تنتظر حتى تعبر القندا[٨٠]

التفت ناحية الشمال كانت المركبة السياحية تتهادى.. والأضواء قد بدأت تنعكس على الماء في صورة متألقة متلألئة، مرت من أمامك ثم تجاوزتك ناحية الجنوب.. وخرجت من جزيرة الموز إلى البراح النيلي.. وقفزت كل الأسئلة فى رأسك.. وفجأة وجدت نفسك تصرخ:

- الكَبَك.. الكَبَك.. يا نهار أبوكم أسود.

عدوت على حافة الشط..كانت المركب تندفع بقوة ناحية الجنوب ثم... شق الفضاء طلق ناري تبعه صياح شديد..

أدركت الذي حدث.. فالمركب المندفعة لم تتوقف ومزقت في

طريقها شباك الكَبك العائم.. وانطلق طلق ناري آخر وانتشرت في الجو رائحة دماء..

***

عندما دخلت القرية كان كل شيء قد انتهى.. يتحدث الناس عن قتيل.. ومركبة راسية عند نخلات حياة.. وعن ابنة حياة الباكية.. وعن محمد عمران الذى حمل على كتفيه وزر القرية.. وترى أنت بيوتا حزينة قلقة متوترة..

***

قلت في نفسك "لم أكن في البلد.. ولم أكن في الصيد، لذا أنا غير مسئول عن أى شيء ، أغلقت الدار عليك وانتظرت..

***

امتدت الأيدى القاسية إلى داخل روحك واعتصرت قلبك.. وطالبتك بالبوح.. لم تكن قادرا على الكلام.. فأغلقت روحك عليك..

- اسمك
- محمد عمران
- ما الذى تعرفه؟
- لا أعرف شيئا..
- من الذى أطلق الرصاص؟
- لا أعرف..

رأس سعيد[٨١]

كانت الباحة[٨٢] أمام مقام الشيخ متسعة وعامرة بالأشياء والناس والروائح والأصوات المتداخلة والوجوه الكثيرة التى لا يعرفها، لكنها كانت تبتسم له وتمد أيديها تحاول أن تمسك به، مر من بينها خفيفا قاصدا المقام خلف المسجد.. فهاله أن وجده بعيدا.. وكلما اقترب كان المقام يبتعد.. وقد ساءه أن يكون هذا حاله بعد أن قطع كل تلك المسافة لزيارة صاحب المقام.. وفي البعيد البعيد سمع من ينادي عليه[٨٣]

***

تفجر صوت أذان الفجر في رأس محمد عمران.. فتقلب في مكانه مرتين ذات اليمين وذات اليسار.. وحاول أن يخفي رأسه أسفل الوسادة المتسخة المحشوة بالقطن، والتى تنبعث منها رائحة العرق

المتخثر على الرغم من أن الكيس مغسول.. ولما أحس بالاختناق انقلب على ظهره ثم على جنبه، وتحسس المكان أمامه فلم يجد "إنصاف التي فاجأه صوتها من رحبة الدار مازال يصطدم بالأشياء.. ناداه فاعتدل وجلس.. وحاول أن يمرر الهواء في حنجرته بأن سعل مرة ومرتين.. وشعر بأن صوته غريب عنه وهو يركل بقدمه الصبي الصغير المتكوم أسفل قدميه، فحاول الصبي أن يهرب من تلك الركلة بأن غاص بعيدا ناحية الحائط البعيد.. فركله أبوه مرة أخرى وصاح في وجهه، وقد أدرك أنه بهذه الطريقة ينبه نفسه أكثر فهب الصبي مقطبا وجهه.. يئز ويزرجن مثل جوزة أبيه قبل ضبطها[٨٤]

***

كان محمد عمران يتحرك في الشارع القبلي المتعرج قليلا ناحية النهر يحمل على كتفه شباك الصيد المصفوفة، الفلْ من الأمام يصطدم بقدميه كلما هم إلى الأمام، والرصاص على ظهره تقريبا يكاد يلمس مؤخرة ظهره.. بينما كان ابنه الصغير الذي لم يبلغ العاشرة يتسرب بين قدميه بعينين لم يتركهما النوم بعد.. يحمل لفة في إيشارب مثلث الشكل مبهرج بألوان كثيرة متداخلة معا تناولته أمه من على حبل الغسيل الممتد بطول الدار، ووضعت إناء به جبن وبيض أخفتهما برغيفين كبيرين[٨٥]، وضغطت على يد الصبي بقوة وهي تحذره من أن يسقط ما في يده.. وفي يده الأخرى قبض على سلة الخوص التي يوضع فيها السمك.. اصطدم الصبي بالباب عندما حاول الخروج.

***

في هذا الوقت تكون صفحة الماء أقرب إلى الخرس لا تسمع لها هسيسا.. ساكنة تماما، والصيف يحمل نسمة خفيفة في هذا الجو المفتوح.. ويكون للماء لذعة جميلة، تشعر بأنها تناغش قدميك[٨٦] وفي نهاية الأمر شمر الصغير جلبابه وخاض بقدميه في الماء لعدة خطوات.. فرك عينيه.. وأمسك بالقارب من مؤخرته ثم قذف بنفسه لأعلى وامتطى بطن القارب، ووقف في قلبه.. وبدأ يسحب "الهلب"[٨٧] المستقر في الماء بعيدا عن الشط ووضعه في المقدمة.. واتخذ مجلسه بين المجدافين وأخذ يرجع بالقارب حتى لم يجعل بينه وبين البر سوى القليل.. فوضع الأب الشباك على الظهر، وحاول أن يجعلها مصفوفة، وألا يختلط الفلْ بالرصاص كي تسهل عملية التفريد[٨٨]، ثم وضع إحدى قدميه في بطن القارب واعتمد عليها لينقل قدمه الأخرى.. بعدها تحرك الصبي من مكانه ليجلس في المؤخرة بجانب الشباك.. وأخذ محمد عمران مكانه بين المجدافين ثم بسمل وحوقل وتوكل وجدف في عكس التيار ناحية رأس القطوط

***

وبعد أن تجاوز محمد عمران رأس القطوط ومر من تحت جنينة بيت محمد سعد.. وقف على مؤخرة القارب وقام الصبي مكانه بين المجدافين، وفي حركة بطيئة ورتيبة بدأت عمليتا التجديف والتفريد[٨٩]، أخذ محمد عمران ينزل الشباك في الماء والصغير يدور بالقارب ناحية الغرب ثم الشمال ثم الشرق في شبه دائرة..

وبعد أن يفرغ التفريد يشد محمد عمران الحبل الذي يربط الشباك بالقارب. ولما يتأكد من قوته يسحب المدرة[٩٠] ويقوم بعملية ضرب الماء بشدة محاولا أن يصنع صوتا مرتفعا كي ينزعج السمك الذي يسكن في الحشائش وورد النيل.. لما ينتهي يجلس ويخرج الجوزة ويوقد الحطبة ويرص الحجر دقائق قليلة بعدها يقوم بلمِّ الشباك بالطريقة المنظمة تقريبا.

***

عندما يكاد النهار ينتصف يسحبان القارب ويتناولان غدءهما تحت أية شجرة نبتت في طريقهما.. ثم يحمل محمد عمران السمك الذي رزق به ويذهب إلى حلقة السمك في البداري.. بينما يعود الصغير إلى البيت يئن تحت ثقل الشباك.

***

هذا هو اليوم العادي في حياة محمد عمران الصياد أبًّا عن جد، ومع هذا هناك أيام أخرى مختلفة.. منها يوم الجمعة فهو لا يذهب للصيد فيه، ويجعل منه يوما مقدسا ينتهي بصلاة الجمعة، لكنه يبدأ من ليلة الخميس له في كل لحظة طقس من أول الجلسة الممدة على الحصير وجعل اللحاف الجديد فرشا أسفل منه، مرورا بحجري القص مع خشب السنط، وانتهاء بالاغتسال بصابون حلو وارتداء الجلباب الرمادي الجديد.. أما الذي يميز ذلك اليوم عند محمد عمران فهو أن "إنصاف تعود مرة أخرى الطفلة الصغيرة التي كانت تسكن في آخر الدرب.. يتذكر رواحه إليها ويتذكر كلب بيت

محمد سعد الذي كان له بالمرصاد.. تعود "إنصاف بين يديه صاحبة أول نظرة وضحكة ترن في حياته.. يمد يده ويزيح الإيشارب من على رأسها.. ما زالت عيناها تتبعان يديه، ومازال مفرق شعرها ورائحة جاز قديم تختلط بزيت شعر محبب تنبعث من رأسها.. القميص الذي ترتديه الآن مر أسبوع كامل وهي تلفه على قطعة من الصابون أهديت إليها من أخيها عند مجيئه من العراق[٩١] في الحقيقة هي أخذتها عنوة.. ساعتها مدت يدها وقالت لأمها

- أنا أريد هذه الصابونة..

ولما كانت واحدة من ثلاث قطع فقد نظرت زوجة أخيها بحقد إليها.. لكنها أخفتها بسرعة داخل فتحة الصدر في ثوبها.. تعود "إنصاف تخفت فلا يكاد محمد عمران يسمع لها صوتا.. بعد أن كانت طوال الأسبوع تهج منها العصافير والغربان التي تمر على دور الجيران قبل دارها..

بعيدا عن يوم الجمعة المسبوقة بليلة الخميس - أيضا - لو كان هناك فرح لأحد أقاربه يعود مبكرا وقد لا يذهب إلى الصيد من الأساس.. ويعتبر أن الفرح فرحه هو إذ يلبس الجلباب الأزرق والصديري الأزرق والشال الكشمير ويكون الشراب ثابتا على قصبة ساقه[٩٢] وأسفل منه يستقر الحذاء ممسوحا بالصبغة التي يعدها في البيت، ويضعها في زجاجة قديمة.. ثم يستخدم بعد ذلك معجونا أسود لتلميعها.. وأخيرا بقطعة القماش القديمة، قبل كل ذلك يكون قد مر الموسى أكثر من مرة على ذقنه.. ثم يمرر يده عليه

ويرضى، عادة ما يبحث في الفرح عن "إنصاف كي يلمح لحظة الإعجاب في عينيها، ثم يبتسم ويعود ليقف بين حشد الرجال.

والأشياء تذكر بضدها.. لذا وجب علينا أن نقول: إن للجنازة شأنا آخر عند محمد عمران.. فهو لا يذهب إلا لتأدية الواجب ليلا.. ولو حدث ومات واحد وكان محمد عمران ما يزال في بيته يظل يتحين الفرصة كي لا يذهب للجنازة.

وهناك أيام أخرى يذكرها محمد عمران مثل مرض قديم جعله يلزم الفراش نحو خمسة عشر يوما زارته فيها أمة لا إله إلا الله ما عدا بيومي عطَّاف.. لذا لن ينسى له محمد عمران هذا الأمر أبدا.

ويوم أن وقف هو وأخوه أمام النيابة وفي رأس كل واحد منهما شج يتسع عند محمد عمران ليصل إلى منتصف الجبهة، والكثير من اللكمات في الوجه.. وبعد أن تشاكيا انتهى الأمر بأن اجتمع الأقارب وكبار البلدة ممن ليس لهم مصلحة عند الطرفين، وعامة الناس، ومن له مصلحة عند أحد الطرفين، ومن له مصلحة ما لم يعرفها بعد.. كل هؤلاء اجتمعوا.. وبعد أن تبين أن ابنى عمران الصياد ليس لهما أي شيء مشترك سوى البيت والنهر قرروا أن يقسم بيت عمران الصياد إلى قسمين مستقلين.. وأن يظل رزقهما من النهر بيد الله لا يمكن تقسيمه.. وأصبح لكل منهما بوابة خشبية مستقلة.. من وقتها ويحدث أن يلتقيا حين يهم كل منهما بدخول بوابته فلا يتحدثان أبدا.. وفي الصيد قد تتقارب قوارب

الصيد فيبصق أحدهما بجانبه.. وإن أوشك قارب محمد عمران أن يصطدم بقارب أخيه المستقر على الشاطئ صاح في الصغير
- ابعد عن ابن الفقرية ده..

وهناك أيام أخرى لا يذكرها محمد عمران، منها يوم وفاة خاله.. فهو يصر على أنه ذهب للصيد.. وتصر "إنصاف على أنه ذهب للجنازة.. وسبب إصراره أنه يضرب بهذا الأمر المثل على حاجته للعمل وتفانيه فيه.. وقد يستدل به على ظروفه السيئة، أو قوة قلبه وعدم مسامحته.. على أساس أن خاله كان قد أهانه وهو صغير ذات مرة.. لذا عاقبه بأنه لم يذهب إلى جنازته.. من يومها والناس يعرفون أن محمد عمران لا يغفر لواحد أساء إليه أو لم يقدره حق قدره.. لكن "إنصاف التي تعرف خطورة الأمر الذي سيترتب عليه منعها من الذهاب لفرح أولاد عمتها بعد أسبوع - توجد مصادمات قليلة بينهم ومحمدعمران ترتب عليها أن فتحت رأس واحد من أبناء العمة.. لكن الأمر انتهى بالمصالحة، وكثير من البن في الرأس المفتوح - تصر أنه ذهب.. وأنه كان مندسا تحت النعش يجأر بصوت مبحوح.. ومع الزمن لم يعد هو متأكد وهي سكنها كثير من الشك..

***

كل تلك الأيام كانت عادية لمحمد عمران لكن ظل في حياته هناك يوم غير عادي.. على الرغم من أنه بدأ كيوم عادي غالب فيه النعاس،

ولكز الصغير في جنبه حتى بكى، وهجم عليه صوت "إنصاف وهو بين اليقظة والنوم، وحمل الشباك المصفوفة، وتحذير "إنصاف للصغير ألا يسقط ما في يده.. وقبل كل ذلك بكاؤه أمام الضريح الذي لم يصل إليه.. ومع كل هذا كان اليوم مختلفا جدا(٩٣)

***

ليل الغريب ممتد وبارد ومنكمش في الروح كالمسجى في موته.. ويسكن الجسد كسخونة القيالة في يوم جمع عيدان الذرة في حين تطاردها مياه الدميرة.. وبين هذا الثلج وتلك النار يكون الغريب سائرا لا ترسى له مركب.

***

كم من الغرباء عبروا من هنا من هذه الدروب.. عبروها أحياء أو أمواتا.. كثير منهم التفت إليها ومضى، قلة هم الذين استكانوا إليها.. العابرون على أهدابها أكثر لا تكتحل عيونها بهم، وهم يندفعون في وهجهم يحترقون قبل أن يغادروها، ظلت الطرق تحفظ حكاياتهم، وظل الناس يرددون سيرتهم.. لكن لم يمر على القرية مثل سعيد هذا الذي لم يأت من جبل ولا من طريق، ولم يتحدث بلفظة واحدة.. ولم يعرف الناس بحة صوته الخالصة.. فظل أسطورة الغرباء في قريتي.. سعيد الذي قذفه النهر ذات صباح تحت أقدام قريتي المستكينة، هو الآن يستقر تحت رأس سعيد في ذلك المنحنى الخطر كحد فاصل بين جزيرتين أو بالأحرى جزيرة قسمت قسمين.. سعيد الذي ينتمي إلى عالم الصامتين.. هؤلاء

الذين يتركون أثرا عميقا فيما يلمسون من أشياء.. تظل رائحتهم تعبق المكان.. فقد جاء صامتا وألقى حكمته، واستقر ساكنا الأرواح قبل أن يسكن الأرض.. فهل هي رهبة الموت تلك التي تنقل الأحاديث السرية إلى العلن؟ لكن من أين عرفتْ قريتي حكاية سعيد الذي قتله زملاؤه من فوق الوابور؟ حكاية متداخلة وقد تدخل محمد عمران - الشاهد الأول على رؤية سعيد المقتول وعلى مشهد القتل ليؤكد أنه قد سمع صرخة قوية سبقها مباشرة ارتطام شيء بعود حديدي ثم صوت سقوط شيء ثقيل في الماء.. كانت الصرخة قوية ومتألمة.. وبها كثير من الخوف اخترقت صوت المحرك وتعشقت بصدى الصوت في الليل.. وأنه - وما زال الحديث لمحمد عمران - قد تتبع الصرخة هذه فرأى على الوابور عملاقا شاخصا يمسك في يده قطعة من الحديد وعيناه تتبع الماء المبتعد.. وهنالك في الماء شاهد من يرفع يده ويخفضها فأسرع إليه.. وحاول أن يخرجه من الماء فلم يستطع فسحبه خلفه إلى الجزيرة.. وأكد محمد عمران أن سعيد وصل إلى البر حيا وكان في النزع الأخير وأنه همس في أذنه بتلك القصة.. كان السؤال التالي: وما تلك الصرة الحريرية التي كانت على يده؟ يعود محمد عمران ليؤكد أنها كانت تشد على ثلاثة جنيهات وثلاثين قرشا.

***

كم من الجثث مرت من هنا! لكن لماذا تعلقت القلوب بجثة سعيد وكأنه أحد أبنائها؟ كيف أدان الناس القتلة من دون أن

يستمعوا إليهم؟ ما الذي جعل وهيبة السعداوي تخرج من بيتها سافرة عن شعر مجعد منكوش تصرخ بأعلى صوت نائحة عليه:

كبدي عليك يا خوي..

***

سعيد المولود تقريبا على ضفة ترعة صغيرة وآخر الذي كان يراه هو بحر بلبيس.. لم يكن يعرف أنه سيكون رجل الماء في قريتي.

***

ظل الدافع للقتل غامضا على الناس فى البيوت والمقاهى، على الرغم من أنه ليس من طبيعتهم أن يتركوا شيئا لا يعلمون أوله وآخره.. لكن فعل القتل في موضوع سعيد لم يصلوا فيه إلى حد اليقين.. فقد تعددت الأقاويل.. فذهب نفر من الصيادين الذين لهم احتكاك كبير بعمال النقل فى شركات النقل النهري إلى أن سبب القتل كان بدافع السرقة فـ سعيد الذي ليس له أبناء ولا زوجة كان يضع راتبه في علبة صفيح صغيرة ويخفيها في مكان خفي في الوابور.. كانوا لا يعلمون مكانه.. فلما علموا ولم يكن باستطاعتهم السرقة قتلوه.. وقد تكشف الأمر بعد ذلك أن لـ سعيد أما وأخوات صغيرات وزوجه.. وأنه كان يرسل لهم معظم راتبه.. وأن الذي كان يخفيه في علبة الصفيح الصغيرة إنما هي بعض العملات القديمة وسلسلة نحاسية عليها اسمه ورقم كتيبته العسكرية، وبعض الصور والأوراق، وأشياء احتفظ بها من عهد

التجنيد، وكذلك الجنيهات الثلاثة والثلاثون قرشا التي وجدت معصوبة على يده.. فتتحسر قريتي أكثر وتجز على أنيابها تريد أن تفتك بهؤلاء القتلة البعيدين عنهم الآن..

وراح من يقول: إن الأمر فيه نساء.. وأن أحد البحارة ممن يعملون معه على الوابور كان يريد لـ سعيد أن يتزوج بأخته العانس.. وأن سعيد أبدى موافقة.. لكنه لما ذهب لرؤية العروس وبعد الترحيب المعتاد.. خرجت العروس تحمل بين يديها أكواب العصائر التي لم يرها سعيد.. فقد هاله دمامة العروسة الواضحة.. وأحس بأنه قد خُدع.. وقد تظاهر بالرضا.. وأن الذي يحتاجه القليل من الوقت كي يأتي بأمه العجوز التي تنتظر مثل هذا اليوم.. وفى أثناء العودة كاد يأكل نفسه من الغيظ ومن صاحبه المخادع هذا الذي ظنه رجلا يبحث عن أي شيء.. وقد طال الوقت ولم يحدث صاحبه في الأمر بعد ذلك.. ثم بدأ يتهرب من الأمر بأن الظروف لا تسمح وأنه سوف يتزوج من قريبة له، وقد كاد الصديق يقتنع بهذا السبب.. ولكنه لاحظ - هذا الصديق - أن العاملين على الوابور يضحكون كلما مر بهم.. وأنهم كانوا يتبادلون مع سعيد بعض الحركات الاستفزازية فعظم عنده الأمر وفي أثناء مشادة مع سعيد قتله بدون قصد.. يصمت الناس في قريتي كثيرا بعد هذه الحكاية.. لكن ينفلت محمد عمران ليفك الصمت:

- وما الذي جعله يظن أن الضحك كان عليه وعلى أخته؟

ولَّما يجد أن الآذان مالت ناحيته يكمل:

- و سعيد كان مضروبا على مؤخرة رأسه.. يعني كان موليا ظهره للقاتل..

حينها تسمع عودة التنفس المنتظم للجالسين الذين يسارعون بالمشاركة في هذا النقاش..

الحكاية التي لم تعرف قريتي أن تدافع عنها.. أن سعيد قتله الريس خلف ريس المركب، لأنه لما رأى سعيد أعجب به وأخذه لبيته في إحدى الإجازات.. لكن سعيد لم يصن حرمة البيت، فقد كثرت بعد ذلك زياراته للبيت من وراء علم الريس خلف، وأن الخبر وصل إلى الريس خلف بما كان من أن سعيد يذهب لزيارة بيته في غيابه.. فتربص به حتى قتله.. يلوى الناس شفاههم ويقولون:

- الريس خلف هو الذي كان على خطأ ما كان له أن يأخذ سعيد إلى بيته..

ثم يستدركون - بعد أن يلاحظوا أنهم جميعا يدعون بعضهم إلى بيوتهم -:

- أن سعيد هو الذي خان الأمانة..

ويعود محمد عمران ليدافع:

- لكن هذه الحكاية ناقصة.. فالراوي لم يذكر سوى أن سعيد كان يذهب لبيت الريس خلف دون علمه.. ولم يقل ما ظروف الريس خلف، هل لديه بنات مثلا وكان سعيد يريد أن يصاهره؟ وبنات بحرى عوايدها غير الصعيد.. فالبنت تلتقى الولد أكثر من مرة قبل أن يتقدم رسميا للكلام مع أهلها.. وقد يكون سعيد

حاول كثيرا أن يكلم أباها أولا لكنها رفضت، وأصرت أن توافق هي أولا وكيف يكون ذلك سوى بأن يلتقيا..

لكن غريب شحاتة يخرج عن التزامه بالمدافعة عن سعيد ليقول: - بصراحة الواد سعيد لو رأيته تقول لنفسك أكيد هو يونس الهلالي وعيونه كلها خبث ويشعرك أنه لعبي ويحب النساء(٩٤)

***

لكن قريتي التي تحول سعيد إلى هاجس صحوها ومنامها ظلت تروح وتجيء على سيرته.

***

ظل السؤال الذي لم يسأله أحد: لماذا كان أداء الشرطة في التحقيق ملتبسا وغير واضح؟ يقولون إنهم أرسلوا للشرطة عن طريق الخفر النظامي.. الذين ذهبوا إلى العمدة الذي أرسل بدوره إلى المركز فجاءت بعد منتصف النهار قوة مكونة من ضابطين أحدهما يفوق الآخر؛ لأنه جلس بعيدا في ظل شجيرات الصفصاف.. بينما الآخر ومعه أربعة جنود وعدد من الخفراء اقتربوا.. وكان الخفراء يكيلون السب للناس المحيطين بهم.. وبعد أن نظروا للجثة من جميع الجهات وضعوا رداء على الجثة يسترونها من العيون، وطلب الضابط الكبير من أحد الخفراء أن يظل هنا ورحل الباقون.. ظل الناس في قريتي ينتظرون أن تأتي قوة الشرطة مرة أخري ليحملوا سعيد كي تستطيع القرية أن تعود إلى سابق

عهدها.. لكن الخفير وحده يشرب الشاي كل بضع دقائق، ثم بدأت الغربان تحوم حول الجثة المنشورة في الشمس ولم يأت أحد بعد صلاة المغرب اتجه سيد الحسيني والشيخ أبوزيد واستأذنا الخفير، وصبا على جسد الجثة كثيرا من العطور، وتركا طعاما للخفير في الصباح تحدثت قريتي التي ظلت ساهرة تنتظر ولم يأت أحد.. كانت البيوت مغلقة على أجساد فقط لكن القلوب كانت على الشاطىء تحرس المغدور[٩٥] لم تهجع القلوب.. قد تكون غشيت عيونهم نعاسة قبيل الفجر لكن الشيخ أبوزيد كان صوته الواهن المريض في أذان الفجر مصحوبا بشجن غريب.. تسمع في قافية الصوت تصلب الدمع على الخد.. أقسم الجميع أنهم استمعوا إلى صوته في الآذان ولم يحلموا بهذا الشجن.. لكن المفاجأة كانت في الصباح فالناس لم يجدوا سعيد ولم يجدوا الخفير وصالت القرية وجالت في الأمر ولم تصل إلى شيء[٩٦٦]

هذا لم يمنع كم التخمينات.. فسرعان ما انعقدت المجالس في خص السيد عرابي قبلي البلد.. واتخذ على الدرديري مكانه من على المصطبة الطينية كي يقدم للحكاية الغريبة.. بينما راح محمد عمران والحاج على همام وشحاتة غريب والسيد حسانين يبدون ملاحظاتهم..

كان محمد عمران فى هذا اليوم يحس بدفء جسد سعيد على يديه.. ويشم رائحة الدم.. بينما العينان المتألمتين تنغرسان فى وجهه

أكثر..وكلما همَّ أن يلتفت يمينا أو يسارا رأى سعيد يجرى بين الصبية المرتبكة خطواتهم..

***

يوم أن عبرت المركبة السياحية فى قلب الكَبك..انتشرت فى الفضاء رائحة دم سعيد ..فاقشعر جسد محمد عمران.. وتحفزت يداه..

العهد يعيد نفسه يا محمد عمران.. تجد نفسك فى قلب الماء تمد يديك لتمسك بـ سعيد مرة أخرى.. كان الدم يتصاعد من الماء.. هذه المرة أيضا تشبث بيدك.. صرخت

- سعيد لا تترك يدى ..سعيد لا تترك يدى.

***

مرتبط محمد عمران بالمكان الذى اتكأ عليه سعيد ليموت بين يديه.. أبدا سعيد لم يقتله الغرق قط.. بل قتلته الحديدة التى استقرت فى رأسه (هكذا يقول محمد عمران دائما).

***

المكان الذى أطلق عليه بعد ذلك رأس سعيد أصبح عند محمد عمران المكان الذي يبدأ منه الصيد.. حتى فى موسم الكَبَك يبدأ الناس من نخلات حياة.. ويبدأ هو من رأس سعيد، رغم التهكمات بأنه لن يصطاد شيئاً ما لم يأخذ بركات حامية الكَبَك.. لكنه كان يرى سعيد مظلوما.. أما حياة فلم تكن مظلومة.

***

عندما عبرت المركبة السياحية من أمام عينيه قبل أن يبدأ تفريد الكَبك لأن دوره لم يحن بعد.. ظل مندهشا فاتحا عينيه وفاغرا فاه على ما ستحدثه من كوارث فى الشباك العائمة التى تلامس سطح الماء.. عبرت المركبة من أمامه بقوة كان هو فى الشمال ومرت هى ناحية الجنوب، والصيادون عن بعد يصيحون..

وانطلقت الأعيرة النارية..وللمرة الثانية رآه محمد عمران يسقط من علٍ إلى الماء.. سعيد يسقط.. يسقط بعد تلك الرصاصة المكتومة..

كانت الأنة المكتومة هى ما سمعه محمد عمران رغم بعد المسافة، اندفع فى قلب الماء وصاح:

- سعيد لا تترك يدى.. سعيد لا تترك يدى[٩٧]

- اسمك؟

- أنت غريب عن المكان لماذا كنت هنا؟

- لست غريبا

الغرب..[٩٨]

الغربة.. الرحيل.. البعد.. الهجر السفر كل هذه الكلمات تنشط في ذاكرة الطفل أي طفل.. إن لبس خرقا فلأن أباه مسافر، إن لبس جديدا فلكون أبوه مسافرا النساء إن احتجبن فليس من الواجب خروج المرأة الغائب زوجها، وإن خرجت فماذا تفعل تلك الوحيدة في حوائجها؟!.. لا تملك أنت سوى ذلك الكلام تحدث به نفسك.. الحاج علي همام يمر الآن على الدور ليعطي الرجال والأطفال والبنات عرابين السفر[٩٩] إلى الغرب لجني القطن.. مر من أمامك بجسده الربعة المدكوك إلى الأرض فلم يحدثك أو يناكف فيك كما يفعل كلما تلتقيه.. يصفك بالجحش الكبير الذي لا فائدة منه، لذا عندما لم يحدثك اليوم قلقت.. كان قد اتفق مع أبيك على أن تذهب هذا العام إلى الغرب للعمل فى الترحيلة[١٠٠]

***

لم يكن الاستعداد لهذا اليوم سهلا ولا صعبا..كان يوما استثنائيا.. في الفجر كانت مركب عبيد الله تلقي بك فى الناحية الغربية.. التفاتة صغيرة ناحية أكوام الخوص المتراصة تكفي بأن تولي وجهك شطر جنينة الزقلة وتستمر تحمل جوالا من فصوص العيش الناشف سهرت أمك ليلة كاملة تصنعه لك.. لم تكن تعرف أنها غذاؤك مدة الترحيلة[١٠١]، الطريق طويل والإعياء والملل أخذا منك نصيبا كبيرا.. ولما اقتربت من الحاج على همام وسررت في أذنه أنك تعبت لم يلتفت إليك وقال:

- بعد قليل نصلي الظهر ونستريح كثيرا.. كثيرا..

"كثيرا.. إنها كلمة لا تعني شيئا عند الحاج علي همام فهي بمقدار صلاة الظهر الصلاة التي عندما بدأوا الاصطفاف تلكأت للخلف وجلست منزويا بعيدا عنهم.. حتى شعرت بألم شديد في فروة رأسك ويد تقبض عليك بشدة:

ألا تصلي يا ابن الـ قم وتوضأ.

أنت الذي كنت تمارس حريتك في التفكير بعد أن رأيت قريبك الذي ذهب ليتعلم فى الأزهر، بيت العلم، غاب نحو عامين، وعاد لا يحمل سوى الكثير من الكتب والمجلات والحديث عن الثورة وناصر..كنت تستعير منه المجلات تتعلم فيها القراءة.. كان لا يصلي وبعد كلام كثير بدأ بمحمد ومر بالقرآن وعمر والصوفية وانتهى بخواجات كماركس وتروتسكى.. لم يستقر في ذهنك سوى هؤلاء الذين ينهبون كل شيء ولا يعطون للفقراء شيئا.. ولما أدرك عجزك عن الفهم أيضا قال:

- إنه يحاول أن يصل لتلك الأفكار كالصلاة بنفسه..

وتحدث عن الحرية واليقين والمساواة.. من يومها توقفت عن الصلاة كي تصل مثله لا تدرى لأي شيء سوى أنه كان يلبس ملابس جديدة دوما وحذاء لامعا ويتحرك بقوة، ويسترخي كأنه نائم، وأصبح فى الفترة الأخيرة قليل الكلام.. فرفعت رأسك ولم تكلم الناس لمدة أسبوع.. فلما أصابك الضجر من الوحدة وتململت نقضت الصمت.. ولما رأيته يغازل إحدى العابرات على أشعة الشمس وهي تبتسم.. وقفت أنت على أول الدرب لا تفلت منك شاردة، حتى ضج الناس منك وأنت لم تدرك سوى أنك تنتظر الهداية أن تهبط عليك.. أما أبوك فما كان منه إلا أن أرسلك مع التراحيل..

في هذا الصيف تناقضت الأشياء التي كنت تعلمتها لكن لم تصل لشيء بعد[١٠٢] حتى أمسك بك علي همام منزويا فاستقمت في صف خلفه، وأضفت إلى نظرية قريبك، أن القهر يحمله كل واحد قادر وليس شرطا الأغنياء، لذا كرهت علي همام.. في الحقيقة كنت تكرهه يوما وتحبه يوما.. ثم اختلط الأمر عليك فاجتنبته فقط.. الطريق طويلة ومرهقة.. في سوق طما اشتريت طعمية ساخنة، حينها ظننت أن تلك هى الحياة التي تقبل عليها.. أرقك أنك خرجت منها إلى مساحات خضراء هائلة.. على الطريق السريع وقفتم تنتظرون السيارة الكبيرة[١٠٣]، عندما وجهت كلامك لعلي همام بأن تركبوا القطار صاح فيك

- لن يمر فى طريقنا..

شعرت في صوته بارتجافة خفيفة.. هل يخشى على همام القطار؟ أنت الذي ما رأيته.. لكن سمعت من المسافرين الرحالة ومن قريبك الذى عاد من الأزهر لا يحمل سوى المجلات والكتب القديمة.. أنه يمر بأبو تيج التى تتوجهون إليها الآن.. كما أنك تسمع صياحه كل صباح في قرى طما.. ولما أتت السيارة الكبيرة تكدستم فيها رجالا ونساء وصبية.. دائما ما يكون في قربك من النساء شيء ساحر تجد نفسك قد ملأت صدرك بالهواء وشعرت بقدميك على الأرض أكثر ثباتا..وبروحك تطير مع كلامهن الذى يمتلئ بالاحتمالات..

***

من الضروري أن توضح أن الذي حدث في تلك الترحيلة ليس صراعا مع الباشا الذي لم تر ابنته قط.. تلك التي إن رأيتها وأبهرتها بحركات القردة لن تعجب بك.. بل ستعجب من كونك أقرب للقردة منك للإنسان.. إن أبهرتها بقدرتك على الكتابة والقراءة رددت في نفسها قلقة: ويخلق ما لا تعلمون.. إن سمح لك الباشا بأن تدخل حجرة الخزين وأنت تحمل أجولة البطاطس وتسترق السمع لحديث النساء.. وأن تلتقي ثانية ابنة الباشا التي تجهل اسمها والتي سوف تسألك من أين أتيت.. والتي عندما تجيبها من "قاو تمط وجهها الذي يبرق وتقول:

- لم أسمع بها من قبل(١٠٤)

تقولها ثم تغادرك مسرعة.. لم يحدث شيء من هذا.. فأنتم المعزولون في الغيطان لكم حرية أبي القردان.. قلما ترون الباشا من بعيد على حصانه البعيد.. يهرول إليه على همام وتظل البنات يتحدثن عنه وعن صفاته طوال الليل.. كنتم تلمحون من بعيد شبح الابتسامة يكاد يفتك بوجه على همام، أو ترونه مطرقا للأرض يعقد يديه خلف ظهره.. يعود متبخترا كأنما كان يلقى خديوى مصر يمد كرشه للأمام، أو يعود صامتا مشغول الذهن، ويصحح لواحد قال له:

- ما الذي يريده هذا الرجل يا عم الحاج على يقول له في نبرة عالية:

- الباشا الكبير يا جحش.

لكنه لا يقول له ماذا كان يريد منه.. أنت وحدك الذى أسر لك على همام بالسر كان يقدم للموضوع فيقول:

- لم أر الباشا طفلا قط على الرغم من أنى من سنين وأنا أجيء إلى هنا كل عام فى موسم القطن..

ثم يطرق.. وأنت تصمت.. قبل أن يضيف:

نحن لسنا مرابعية[١٠٥] عند الباشا الكبير فنحن نعمل بأجر نأخذه لو أردنا كل يوم..

ثم يرفع ذقنه ويقول:

- لو أردنا الرحيل لرحلنا من يومنا هذا

يخطط على التراب أمامه خطوطا متداخلة ثم يعود ليسوي التراب ويكتب من جديد ..

- لك أن تصدق.. أن ذلك الرجل الباشا الكبير أرسل إلي من ثلاثة أيام.. ولما ذهبت إليه في دواره الكبير كان مهموما بشدة يروح ويجيء في حجرته الكبيرة التي لا يمكن أن تتخيل طولها وعرضها.. ولما دخلت أشار إلي أن أجلس.. وكان يوجد معه بشكاتب الدايرة، ومن الواضح أن الأخبار التي نقلها إليه ليست جيدة، فكل فترة يزوم في وقفته ثم يروح ويجيء.. وأخيرا قال لي:

- اذهب يا حاج علي.

وانصرفت وما كان لي أن أسأل، ولكن لما خرجت من الدوار التقيت الخفير سلمان بجانب البوابة، وسألته بطريقة مواربة عن الذي يحدث في الدوار قال:

- بصراحة لا أعلم شيئا.. كل الذى حدث أنه في الصباح الباكر جاءت مكالمة تليفونية من أبو تيج.. وكان الباشا ينتظرها بفارغ الصبر ومن حينها وتلك حاله..

وأكمل الحاج على بأنه بعد أن خرجنا معا وابتعدنا قال الخفير سلمان بعد تردد:

- إن الأفندي محمد العيسوي[١٠٦] منذ جاء من القاهرة، وأثار الفتنة في النجوع المحيطة بأنه قد صدر قرار الإصلاح الزراعي والباشا لم ينفذه حتى الآن، والمسئولون عن هذا الأمر متواطئون مع الباشا، وأنه سوف يرسل إلى جمال عبد الناصر شخصيا..

قطع على همام كلامه وسألك:

- هل يمكن لأي واحد مهما كان أن يكلم جمال عبد الناصر

سأل وأجاب لنفسه:

- لا أعرف حقا ولكن يبدو كذلك..

عاد إلى حكايته وقال:

- إن الباشا من يوم أن سمع هذا الكلام والدنيا وقفت ولم تقعد عنده.. طوال الليل يحمل سلاحا ويطلق أعيرة نارية ويظل ساهرا للصباح خشية أن يهجم عليه الفلاحون.. واليوم رأيته منطلقا على حصانه، ولما اقتربت منه قال إنه يريدني الليلة في الدوار قالها وانصرف وأنا لا أعرف ماذا أفعل.. قلت له:

- ربما هناك أمر متعلق بالقطن.. أطرق ثم قال:

- لا أظن.. كان يبدو من الوهج الذي على وجهه أن هناك جديدا في أمر هذه الأرض، فالباشا يملك مئات الأفدنة التي سوف يأخذها الناس..

قلت له:

- على العموم نحن ليس لنا فيها شيء نحن عمال ترحيلة.. وانصرفت.

لا تدري لم أنت مشغول بعلي همام طوال الوقت مع أن الترحيلة هي الأولى لك.. وكان عليك أن تقف معها كثيرا ولا تشغل نفسك بعلي همام ولا الباشا.. فقد كنتم تركبون الغيط من أوله بعد الفجر، وبينما الندى يتطاير على وجوهكم كنتم تحزمون أنفسكم

بحبل من الليف أو بشال قديم، وتبدأون في الغناء مع أول لوزة تمسكون بها

اللوزة فين آدي هيه
والتانية فين آدي هيه
والتالتة فين آدي هيه
والرابعة فين آدي هيه
وكبوش الزين يملى العبين
ويغيظ الخايبة أم صرمين

وكنت الوحيد الذي يعمل قدميه في الجَني[١٠٧] فتمسك بالخطبة برجلك بينما تعمل يديك في سرعة.. وما إن تنتهي حتى تكون رجلك قد أمسكت بعود آخر وأمالته ناحيتك بسرعة.. وحين ينتصف النهار ويغيب على همام للصلاة التي تكاسلت عنها حتى تبدأ حصة الغذاء.. تجلسون حيث ينتهى بكم المكان، لستم مجتمعين ولا فرادى.. بل كل إخوة معا.. أو كل أصدقاء معا.. وهناك من يجلس وحيدا، الطعام متشابه جدا؛ جبن قديم وبصل وفصوص العيش الناشف التي أتى بها كل واحد منكم من بيته، مبلولة بالماء وملفوفة في قطعة قماش[١٠٨] وحالكم عند الطعام غريب، فهناك من يذهب إلى دنيا أخرى، ينفصل إنْ حدثته لا ينتبه.. وهناك من ينفجر في الحديث والحكي ولا يتوقف.. قُلْ ساعة أو أقل ثم تعودون إلى أماكنكم تعملون.. لا يقطع العمل سوى الغناء والماء الذي يدور عليكم كل فترة كي تشربوا.

***

وقت الغروب. يكون له طعم البرتقال الأخضر ويملك حرقة اليوسفي وسط نباتات المليسة وأوراق القطن العطنة ورائحة الطين الذي تفركه من يديك وقدميك.. يقف الخولى ومعه عدد من موظفى الدائرة وعلى همام ويبدأون فى وزن القطن بالرطل[١٠٩]

***

تأخذك الطريق الترابية إلى حيث تبيتون ليلتكم غير المكتملة في حوش كبير متسع.. مسقوف بالجريد وجذوع النخل.. تستلقى على ظهرك وتحدق فى السقف الذى انثنى للداخل فأصبح على هيئة امرأة تحمل في بطنها عشرين طفلا وفي شهورها الأخيرة.. وإذ تنعكس ذبالة اللمبة الجاز علي الحائط والسقف وتحرك أنت أصابعك.. ترى نفسك عملاقا، وترى الأصابع قد صارت في حجم عروق الخشب التي تعشَّق بها جذوع السقف، وترى تهويمات على حسب ما تريد.. ففي تلك الليلة صاغت لك ظلال النتوءات والحفر شبح على همام وهو واقف أمام الباشا.. لكن الصوت كان خافتا فلم تسمع شيئا.. ثم فجأة تحولت الظلال إلى عبد اللطيف يسألك عن مجيء على همام من الخارج.. ولما أغمضت عينيك أدخلتك الظلال إلى كتبك القليلة المكدسة في جوال أسفل الدكة الخشبية[١١٠]، قبل أن تمد يدك لها يطل عليك على همام من الظلال مشوحا بيده.. ليلة طويلة.. وقبل انقضائها تطوون أنتم ما تبقى منها..

***

في الطريق تدس يدك في جيبك بحثا عن سيجارة.. فتجد بعض التمرات اليابسات متبقيات من الغداء.. علقت بها نحول القطن وبقايا أغصان يابسة.. تمشي منذ الفجر على غير شيء.. فقد كان يوما مختلفا.. خرجت بدون أن تُعلم أحدا وجهتك.. منذ دخل على همام عليك.. وكان حائرا يقلب عينيه فى الظلام.. بعد أن استقر الليل واختلطت السماء، فأخذت لونا شاحبا بين الضوء القمرى الباهت وبين الظلمة الحالكة، فما عرف النائمون الذين هدهم التعب فانكفأوا على وجوههم إنْ كان الفجر هو القائم على أيديهم.. أم مخادعة الظلام التي تأكل أوقاتهم[١١١]، استأنست بصوت ضفدع وحيد يبكي وترد عليه جوقة من الضفادع فيصمت لما يحس بالأمان.. قليلا ويزعجه الصمت فيصرخ.. وترد الجوقة، وأنت تأكل نفسك ولا تقدر أن تصرخ ولا حتى تئن[١١٢] دخل على همام ونظر إليكم جميعا وأنتم نائمون.. كانت عيناه غير مستقرتين رأيت أنت ذلك في الظلام.. لم تحرك ساكنا بينما تحرك هو خارجا من الحوش القديم الذي تسكنه.

انتظرت قليلا وخرجت إليه في البراح خارج الحوش.. لكنك لم تجده، وعلى الدكة القديمة الملقاة بالخارج ألقيت ما تركه القلق لك.. قد تكون ذهبت فى النوم أو لم تذهب.. لكنك أفقت على من يلكزك في كتفك.. كان على همام قد عاد وهو أكثر اشتعالا مما مضى.. جلس بجانبك ثم على الأرض وقام.. تحرك.. وجلس

وقام.. في النهاية جلس.. فبادرته بالكلام حتى لا يضيع منك ثانية:

- ماذا فعلت مع الباشا؟

صمت قليلا وقال:

- ذهبت إليه بعد أن صليت العشاء في الجامع.. ووجدت واحدا من الخفراء ينتظرني وقال لي "الباشا يريدك وأنا كنت أعرف أنه يريدني.. وذهبنا إليه في السرايا هذه المرة.. ووجدت جمعا كبيرا ينتظر بالخارج غاب الخفير في حجرة الباشا ثم طلب مني الدخول.. فدخلت كان الباشا يحاول أن يكون هادئا.. لكن خرجت الكلمات قلقة.. قام وتحرك، ثم قال موجها خطابه لي:

- علي يا همام منذ متى وأنت تعرفني؟

قلت له:

- من أيام الوالد يا باشا..

- إذن لي أن أعتمد عليك في شيء..

ثم تردد وصمت قليلا ثم عاد يقول:

- أنت تعرف المشاكل التي تحيط بي.. فمجموعة العساكر يريدون أرضي.. وأرض جدودي.. لا يعرفون بأن الملك الذي ترك البلاد سوف يعود، ومجموعة العساكر هذه سوف تعدم ضربا بالرصاص.

كان يردد كلمات عساكر وملك وأرض، قد أفهم وقد لا أعي شيئا مما يقول، كل الذي فهمته أنه علي أن أحترم كلامه للنهاية،

وأن أتركه يحكي، وأن أهز رأسي كل حين.. تحدث عن غربة وسفر وعن ولد طائح في بلاد الله لا يعود[113] شعرت بأنه يريد أن يتكلم أكثر مع واحد علاقتهما على قوتها ضعيفة مرتبطة بأيام معدودة، فأنا غريب مهما يكن فلن ألبث إلا أياما قليلة طالت أم قصرت.. استمعت إليه، وهو باشا حقيقي..

وأكمل في سخرية:

- أي وكأني عرفت الباشا غير الحقيقي..المهم تحدث عن فلاحين وحكومات.. عن جدود ودماء.. ثم يعود لولد طائح في بلاد الله.. تحدث عن أخوات جاحدات وبنات متربصات وقرابة مشروخة متنمرة.. ثم يعود لولد طائح في بلاد الشياطين[114] كان في هذه اللحظة قد ارتفع صوته وتحركت يده بعشوائية على ما أمامه من أوراق.. طال الكلام وأنا صامت.. قلت في نفسي:

لا واحد في الدنيا مرتاح حتى الباشا جاء من ينغص عليه حياته..

وبيني وبين نفسي كنت حائرا لأني لما جلست إليك وحدثتني عن قانون الإصلاح الزراعي رأيت أنه في صالح الفقراء المطحونين، لكن الباشا الكبير يتعذب الآن.. على الأرض.. المهم وحتى لا أطيل عليك ظللنا وقتا طويلا في هذا الأمر وكان الخفير كل وقت يخترق هذه الزوابع والشهب ويدخل فيهب فيه الباشا صائحا

- لا أريد أن أقابل أي واحد اليوم.. اطردهم جميعا..

خرج الخفير بظهره وأغلق الباب.. وبعد أن كلَّ الباشا من الكلام وكاد يحترق من لون بشرته البيضاء التي تحولت إلى جحيم جلس وقال:

- اسمع يا علي همام أنا لن أعطي هؤلاء العساكر أي شيء سوى الفتات من هذه الأرض.. على أن تعطيني المطلوب منك[١١٥]

***

كنت تحدق في شجرة التوت المواجهة لك بعد أن أنهى على همام كلامه وقام شاردا للنوم. جلست وحيدا مشغولا هل يمكن أن يكون الذي قاله على همام صحيحا؟ تركك لتفكر لا تدري في أى شيء، وهل ثمة تفكير في الأمر؟ أنت لا تقدر على شيء الآن..

***

لا تعرف كيف قضيت الليلة في مكانك ساهرا.. وقبل أي صبح كانت الطريق الترابية قد أخذتك إلى حيث لا تدري.. رأيت جناين وشوارع وبيوتا ورجالا ونساء ومعيز وترعا وجسورا.. وجلست في قهاوي وغرز ومشيت.. ومشيت.. ومشيت ثم عدت لتجلس فوق الدكة القديمة أمام الحوش الطيني وتركز عيناك على شجرة التوت.

***

بعد يومين غبتهما وعدت أصابت الجميع دهشة من اختفائك، همس على همام في إذنك:

- ظننتك روحت البلد..

وكان الكثيرون قد ظنوا مثله أنك قد عدت لـ"قاو كنت تجيب بهمهمات.. ظل علي همام يراقبك حتى انفض الناس عنك ثم اقترب وقال:

- أين كنت؟ كنت في البلد؟ ولما قلت له دعك من هذا فأنا موافق على كلامك.. صمت قليلا كي يعطي نفسه براحا ليتحدث، لا تعرف هل صدم من إجابتك المتوقعة أم لا؟ قال:

- نلتقي بعد صلاة العشاء مع الباشا

كان غيابك يومين تقريبا بأمر من علي همام، قال لك

- إن كنت ستوافق فالباشا لا يريد لأحد أن يراك لمدة يومين اختف تماما..

أما أنت فكنت في حاجة شديدة لليومين.. أردت أن تقف مع نفسك كي تعي ما تفعل.. بالليل سوف يكون اللقاء الأول لك مع الباشا، لا بد أن تقنعه بأنك الرجل المناسب لهذا الأمر

أخرجت من قاع الجوال جلبابا رماديا كنت تحتفظ به لسهرة في الفرغل وعدك بها حسانين الشريف والدرديري، لكنها لم تتحقق.. بعدما قالا

- ستكون في آخر الموسم..

وهما يقصدان موسم جني القطن.. لكن الليلة لن تكون في حضرة الفرغل.. بل في حضرة باشا الفرغل الذي يقولون إنه يسوق الذباح ويمد الموائد مدة الشهر الذي يظله الناس في مولد السيد

"أحمد الفرغل ، والذي يجب عليك أن تذهب إليه يوم الجمعة كي تزور مقامه، وتقدم له نذرا لك ونذرا لأمك التى كانت قد أوصتك به، وتشتري منه ثوبا أخضر تعصب به رأسك فلا يصيبك وجع.. وبعد أن تعود.. عليك أن تذهب لزيارة الشيخ سلمان أبو علي[١١٦] هذا الذي اختار من "قاو مقاما وسط الفقر والعوز..

***

لك أن تتخيل وأن تتذكر كل الحواديت الشعبية التي سمعتها عن القصور والجواري والفرش الممتدة وكلوبات النور كي تستطيع أن تتصور ما أنت فيه الآن، دعك من البهو الخارجي للقصر فقد جذبك على همام خلفه بشدة، ولم يتح لك الوقت الكافي للتأمل.. لكن القاعة التي جلست فيها كانت شديدة الاتساع لدرجة كبيرة، بحيث لم تستطع أنت أن تحيط بها.. كان الباشا العملاق يجلس على كرسي تظهر لك تطريزاته البراقة المنعكسة على ناظريك.. وأمامه مكتب خشبي كبير عليه أوراق كثيرة منظمة.. لاحت في عقلك صورة للملك فاروق رأيتها في جرائد الأهرم أكثر من مرة.. ولما طلب منك أن تقترب ظهرت لك الأخاديد التي سكنت وجهه، ثم قال لك:

- هل حدثك الحاج علي عن الموضوع

ابتلعت لعابك بصعوبة بالغة وأنت تواجه هذا الرجل المحنك الداهية الذي أجاد رسم كل شيء وقلت:

- نعم..

حينها استدعى رجلا كان يجلس خارج القاعة منتظرا، وقال سنعيد الكلام على مسامعك حتى لا يكون الحاج علي قد نسي شيئا..

***

عندما طلب منك الباشكاتب أن تبصم قلت

- أنا يمكن أن أمضي.

حينها اعتدل الباشا ورمق على همام بنظرة من نار.. وكرر بخفوت

- أنت تجيد الكتابة.

ثم صمت وفكر ثم قال:

- لا يهم دعه يمضي يا سيد أفندي..

كان الباشا قد أخبرك بالأمر الذي سبق أن أخبرك به على همام.. وهو أن الباشا بعد تفكير عميق وبعد أن استعان بجهابذة القانون في مصر لم يستطع أن يصل لحل ينقذ به الأرض، لكن جاءت الفكرة إلى الباشكاتب سيد أفندي إسماعيل الذى كان يعشم نفسه بأن تطبق عليه الفكرة.. لكن الباشا كان يعرف ما يرمي إليه سيد أفندي؛ لذا جعله يطمع والباشا لا يقطع ولا يصل.. خوفا من مكره.. والفكرة التي توصل إليها سيد أفندي أن يكتب الباشا مساحات من الأرض بتاريخ قديم باسم أناس تقريبا لا يعرفهم الباشا.. ثم بعد ذلك يحصل منهم على عقود مبايعة.. وبهذا تعود الأرض للباشا بعد انتهاء هوجة الإصلاح الزراعي.. ولما كان الباشا يخشى من أقربائه، ويرى أنهم إن دخلوا الأرض فلن يخرجوا منها

ولو قتلو جميعا، لذا أول ما فكر فيه أن يكونوا غرباء يشعرون بالخوف.. وكان على همام هو الذى فى ذهنه.. لكن على همام يخشى المغامرة.. فكر فى أن الحكومة لن تتركه فهو رجل فقير من أين له أن يشتري هذه الأرض؟ خاصة أن الباشا سوف يحصل على الأرض مرة أخرى وهو لن يناله سوى وجع القلب والقيل والقال.. تردد.. ثم قال - وهو ينسحب - للباشا

- عندي من ينفع للأمر[١١٧]

وفكر فيك، ولما عرض عليك الأمر كان فكره أن تخرج لك منها بطيب المأكل والملبس وقليل من المال، كما أنه خشي من رفضه وأراد أن يرضي الباشا، ولما عرض عليك الأمر وافقت مسرعا؛ لأنك لا تملك سوى المجازفة، وليس لديك ما تخسره.. ثم بعد ذلك سيطرت عليك فكرة امتلاك الأرض ونسيت الشق الثاني من الصفقة وهو التنازل عنها، حتى ذكرك الباشا في شرحه للخطة وضغط على كل الحروف المتعلقة بجملة:

- بعد فترة سوف نحددها الآن سوف تعيد هذه الأرض لي..

لم يقل سوف تبيعها أو سوف تتنازل عنها ولما علم أني أعرف القراءة والكتابة ثار واحمر وجهه.. لكنه تماسك فقد أصبح في قلب الأمر ولا يجوز التراجع، لكنه فكر في وسائل جديدة من الترهيب والترغيب كي يضمن ما يريد مني ويضمن التزامي معه، أفقت على موظف التسجيل العقاري يطلب الإمضاء[١١٨]

***

خرجت من عند الباشا وأنت لا تعرف شيئا ؛ ليس في يدك ورقة مكتوبة أو عقد أو ما شابه ذلك.. بل وعاجز عن طلب أي شيء، خرجت كما دخلت لا معك عقد ابتدائي ولا عقد بيع نهائى ولا مخالصة ولا حتى لقمة.. فلم تأكل شيئا.. مضيت صامتا أنت وعلي همام تقريبا تفكران في الشيء نفسه.. فى هذه الخمسين فدانا التي اشتريتها منذ قليل أين تقع؟ تقول لنفسك

– هل من الممكن أن تكون في الدايرة القبلية؛ حيث نجني القطن ويكون كل عمال الترحيلة يعملون في أرضي الآن..

على همام كان صامتا تماما.. ظننت أنه يفكر نادما أن أعطاك هذه الفرصة بعد أن تحدث الباشا عن كونه سيعطيك خمسة أفدنة حين المراجعة.. هل يشعر علي همام بأنه قد تسرع؟ ..وأنه كان من الممكن أن يعطي هذه الفرصة لأبناء أخيه، بدأ يجز على أسنانه بحذر وفاجأه سؤالك:

– هل سآتي للقطن غدا؟

***

لا تعرف كيف انتشر الخبر بين الجميع.. عدتما متأخرين ليلا نمتما أو تظاهرتما بالنوم.. جاء الصباح أو ذهبتما إليه، وأنت تحدث نفسك:

– لعلي كنت أحلم ليس معي شيء..

وقفت أكثر من مرة على رأس على همام تسأله:

– هل كنا نحلم أم حدث كذا وكذا؟..

في الصباح كانت الحركة في الحوش صاخبة ومزعجة.. تجنبت كل هذا، وخرجت إلى طرق كثيرة تفرعت كلها من القصر الكبير الرابض في قلب المكان.. مشيت وقبل صلاة الظهر كنت في الفرغل[١١٩] بمساحة الفراغ خلفه.. دخلته من الباب الغربي ووقفت أمامه لا تعرف ماذا تقول؟، هل جئت كي تلبي نذرا عن شيء لا تعلمه بعد؟، وما ذاك النذر؟ وكيف تلبيه وأنت لا تملك شيئا؟

***

صليت الظهر وجلست في ظل المقام ساعة أو أكثر، ولما عدت ودخلت الحوش كانت البنات قد تحلقن في حلقة واسعة تقف بينهن نفيسة بنت سعد، بينما كان الدرديري يمسك بطبلة صغيرة هي ترقص والبنات والرجال يغنون.. ولما تعبت انسابت إلى وسط الحلقة فريال.. واشتعلت أيدي الرجال أكثر ولما أبصروك بينهم زاد الهرج والمرج.. بينما كان علي همام يتكئ على الدكة القديمة مغمضا عينيه فلم ينتبه حتى لسلامك ولا لشيء، أقبلوا عليك مرحين وعيونهم تسأل كما من الأسئلة.. كيف ولماذا ومن أين ولِم؟

أنت الذي جئت معهم لا تملك سوى جوال عيش أوشك على الانتهاء؛ لأنك عادة ما كنت في الليل تأكل بعضه رغم نظرة اللوم التي كنت تلقاها منهم.. كيف تشترى أرضا وليست قيراطا ولا فدانا بل خمسين فدانا؟ كنت لا تعي أية إجابة عن هذه العيون

المتسائلة.. تخلصت منهم، وهممت بالخروج، فإذا بعلي همام يخبرك بأن الباشا يريدك..

***

توجهت أنت وعلى همام ناحية السرايا مرة أخرى.. أصبحت حركة قدميك أكثر انتظاما.. تنغرس في الأرض نوعا ما عن المرة الأولى.. لم تقابلا الباشا.. جلستما إلى واحد من العاملين في الدائرة.. أعطاك عنوانا في أبو تيج، وطلب منك أن تذهب إليه..

اقترحت على علي همام أن يأتي معك.. في الطريق حدثته عن قلقك بأنك لا تعرف أي شيء وهل اشتريت الأرض أم لا؟ قال:

كل شيء في أوانه..

لما وصلتما إلى محطة أبو تيج كان العنوان لترزي مشهور، ويبدو أن الرجل كان على علم بقدومك؛ لأنه قام وأخرج أقمشة كثيرة جوخ.. وكانت هناك عباءة سوداء وضعها على كتفك، وضحك وجهه عندما وجدها ممسكة بك.

***

ذهبتما للصلاة في الفرغل فوجدتما الخفير سلمان ينتظر بعد الصلاة تحركتم على الركايب التي كان يعدها لكما وتنتظركما ناحية عزبة الباشا، تركبان صامتين ينتابك إحساس غريب، تختلس النظر ناحية على همام فتجده صامتا ينظر أمامه في استسلام غريب.. في البداية كنت منتفخ الأوداج فقد خرجت في الصباح بجلباب كستور أزرق وعدت بجلباب جوخ رمادي وحذاء من الجلد الطبيعي يبرق بدلا

من البلغة التي كنت تدس قدميك فيها، وعلى كتفك عباءة خفيفة؛ لأن الدنيا بين بين لا حر ولا برد.. لكن بعد فترة على الطريق شعرت أن هناك شبها بينك وبين الحمار الذي تركبه.. بل هو يعرف الطريق عنك وأنت لا تعرف.. وسألت الخفير عن الوجهة فإذا به حمار آخر مثلك لا يعرف شيئا.. تسيرون وتسيرون حتى دخلتم في زمام العزبة.. أرض الجناين، وأرض الساقية، والعزبة القبلية، وأرض العرب ومساحات شاسعة من الفدادين تنشر نفسها أمام العيون وأنتم تسيرون وتسيرون.. شعرت بتعب شديد لم تشعر به حينما تمشي سائرا وحدك من العزبة إلى "الفرغل

***

كانت الدار التي وقفتم أمامها دارا قديمة.. لكنها متماسكة جدا، هي إحدى دور الباشا المنتشرة في كل مكان، مدخل متسع وعلى يدك اليمنى حجرة كبيرة، ثم حوش داخلي واسع وفي نهاية البيت حجرتان متسعتان.. كانت واحدة منهما مفروشة لك، وخارج البيت ساحة داخل سور صغير ودكة خشبية جديدة مفروشة.. ووجدت أحد الخفر الملازمين لك.. بعد أذان المغرب امتلأت الدار بكل رجال ونساء "قاو الذين يسعون فى ترحيلتهم في الغرب.. وظل الحكي والكلام ولا واحد منهم قادر على أن يسألك السؤال الذي يدور في خلده من أين لك هذا؟!.. ولما تجرأوا وحامت الأسئلة على شفاههم وبرزت من ملامح الوجه، انتبه على همام، فصاح بهم أن يهموا للعودة إلى الحوش الكبير للنوم.

تعرف تماما أنهم عاجزون عن النوم، وأنت المولع بحركات النساء لم تغفل عن الذي قامت به فريال.. بداية من اختيار جلستها المواجهة لك بما يسمح برؤيتها طوال الوقت.. ومن اهتمامها بكل شيء.. ومن تلكؤها عند الخروج ومن نظرتها المسترسلة.. وظللت وحدك في الدار.. الخفير يحرس الدار وينام على الدكة الخارجية، وأنت تتقلب في حجرتك على سرير معد لك.. يأتي بكل الخوف ويطارد كل الأحلام..

***

بعد أيام كانت الدائرة كلها في هرج ومرج.. فمنذ الفجر ورجال الأمن يحيطون العزبة كلها وبيت الباشا خشية حدوث أي شيء.. ولكن الباشا الذي كان يرتدي جلبابا من الصوف وعباءة صيفية خفيفة ويمسك بعصاه الأبنوسية خرج ليستقبل الضباط الصغار الذين في عمر أولاده مرحبا بهم.. وكان معهم حكمدار أسيوط، ورئيس بندر أبو تيج، ويصيح في الداخل والخارج، حتى أوقفه أحد الضباط الذي يتحرك بحركة عسكرية عصبية:

- نحن في مهمة محددة..

جلسوا في إحدى القاعات وتعلقت عيون واحد من الضباط على نجفة كبيرة تتدلى في وسط القاعة:

- هي النجفة دي دهب يا باشا..

ولما نظر إليه الضابط العصبي حاول أن يتراجع أو يسحب حتى كلمة يا باشا.. أصر الباشا على الغداء وازدادت عصبية الضابط.. لكنه رضخ لما وجد أن الجميع موافقون.

بعد الغداء انتقلوا إلى حجرة المكتب الخاصة بالباشا.. وأخرج الباشا أوراق الأرض فإذا الذي في حوزته مائة فدان فقط.. ولما هم الضابط واقفا في غضب وقلب الورق الذي بين يديه صائحا

- الأوراق التي معنا تثبت أربعمائة وخمسين فدانا..

قال الباشا

- إن الله ابتلاه بولد طالح يعيش في بلاد الخواجات.. وأنه باع هذه الفدادين ولا يملك منها شيئا..

كان موظف التسجيل العقاري يرتعد والضابط ينظر إليه.. ولما أبصر الضابط أوراق البيع صاح:

- متى تم ذلك؟

كان البيع بتواريخ بعيدة موزعة على نحو خمسة أعوام سابقة، لفت اسمك نظر الضابط العصبي..

***

على العكس مما توقعت كانت أسيوط مدينة صغيرة أو لعلك دخلتها ليلا أو كنت في عربة مغلقة.. ومن المؤكد أنك كنت خائفا ومرعوبا مما سوف يحدث لك.. اخترقتها السيارة في دقائق ودخلت من غرفة لغرفة لأخرى أكثر ظلمة مما يظنون.. وانتهى كل شيء سوى الرجفة التي لم تفارقك والخوف مما لا تدريه، ومرت ليلة أخرى حزينة قلقة حاولت أن تتشبث بنهارها فلم يسأل عنك أحد(١٢٠)

***

لم تر شيئا.. لكنك علمت أن الباشا لم يتركك.. وكما انقضوا عليك فجأة واقتادوك إلى الظلام.. تركوك فجأة أيضا لتجد نفسك عائدا إلى البيت القديم.. وكان الجميع في انتظارك.. ورأيت في هذه المرة أباك.. أردت أن تلقي نفسك بين ذراعيه وتبكي.. أردت أن تعتذر لعلي همام حين ظننت نفسك الأذكى.. وأردت أن تلقي ما عليك وأن تولي وجهك ناحية شجيرات القطن تتحسس أوراقها المتيبسة الساقطة بين السرابات[١٢١] وأن تفركها بين يديك وتعض ليمونة خضراء نسيت أن تتحول إلى لوزة متفتحة، كنت تضعها بين شدقيك فتغرس أسنانك في مرارها وتشم عطنها[١٢٢]

***

الخوف كلمة لازمت روحك يوم انتهاء الترحيلة وتسليم آخر جوال بالة من القطن ظللت تتعلق بعلى همام كي يبقى.. عادوا وتركوك تقطع الطرق الترابية ذهابا وإيابا بين "الفرغل والبيت القديم.. وتمر الأيام تشبه بعضها في الشعور بالألم والتيه.

عاد والدك حزينا رغم محاولات الإبهار التي قمت بها معه.. عاد صامتا بعد أن كان قادما منفوخ الأوداج فلما جلس إليك قال:

- خمسة أفدنة لا تستحق أن تأخذك من أهلك..

وصمت.. لم ينطق كلمة أخرى وقبل الفجر عاد..

***

في ليلة أكثر برودة مما تخيلت هجم الباشا والباشكاتب وعدد من رجال الدائرة عليك.. لم يكن هناك علي همام كي تستمد من

وجوده الأمان.. ولم يكونوا هناك في الحوش الكبير ولم تكن هناك شجرة التوت.. خمسة أفدنة أخذتها بقانون الإصلاح الزراعي فلم تملكها.. شعرت بالهزيمة.. ربما بكيت كثيرا.. لا يمكنك العودة فالشماتة صعبة لن تتحمل منها شيئا، والبقاء أيضا يشعرك بالهزيمة.. أنت عامل الترحيلة الذي لم تنته ترحيلته أبدا[١٢٣] سنين تشبه سنينا من الخوف بلون طينة القطن المروية حديثا بعطن الحشائش وبهشاشة الورقة الذابلة تحت العيدان.. وبطعم لمونة قطن خضراء انغرست فيها أسنانك وظلت عالقة بها.

***

زوجةٌ وأولادٌ يتحدثون لهجة الغرب ويجادلون في كل شيء.. غريب أنت بينهم.. لم تسمعهم يوما يتحدثون عن عم قادم أو عم رائح.. كثر حديثهم عن قلة وعيك وعجزك..

– أما كان لك أن تساوم أكثر؟ تتنازل عن خمسين فدانا!

وأمٌ توافقهم في كل شيء.. لم تعد في حاجة إليك.. فهم أغنوها عنك.. يأتي المساء ويأتي الحكي.. محكمة ينصبونها لك وأنت الأعزل الوحيد يصوبون سهامهم نحوك ويطلقون.. استمرأوا اللعبة.. بعد ذلك أخرجوا ما في داخلهم من الجهد والحنق في روحك..

***

كان صوت أذان الفجر في تلك الليلة مصحوبا بشجن غريب يأتي من الشرق البعيد.. له صدى الكلمات التي لامست الجبل،

حملت رماله وعبرت النيل، أصبح الرمل حيبا[١٢٤] ملأ كل الشوارع وأمام البيت القديم، صنع بركة من الحيب رائحتها نفاذة تسري في دمك كدبيب رائحة تراب المدافن وقت بناء قبر عبرت.. قفزت فوق الطين.. وتتبعت الحيب المتساقط على طول الطريق لم تنس شيئا.. فمنذ سنوات قليلة دفنت أمك.. أو قل دفنوها وذهبت متأخرا جدا.. هذه المرة لن تكون متأخرا أبدا شعرت بأن كل الناس تجري خلفك فجريت في الطريق، لم تلتفت.. أمامك الشمس تخرج من خلف الجبل وأنت تحضنها وتجري.

عليك نذر لا بد أن توفيه فى "الفرغل الذي ينتظرك، كانت زيارته مختلفة.. ضاقت الأماكن عليك.. والشوارع أصبحت صغيرة لا تكاد تتسع لحركتك.. وأنت المهموم بك.. نسيت أن عليك نذرا لا بد أن توفى به.. نسيته مع الأيام التى نسيتك هى أيضا..

شيء بداخلك يدفعك دفعا للخروج من الجامع ومن باحته الضيقة إلى البراح الذى فى نفسك.. فوجدته ضيقا أيضا.. لم يتبق أمامك سوى "قاو والعبور إلى الجانب الآخر للعمر الجانب الذى عبرت عليه فى غفلة من نفسك.. غفلة طالت.. وطالت..

***

دخلت القرية بالليل.. ربما الخجل الذى كنت تحس به هو الذى دفعك لدخولها ليلا راعك الصمت الذى لمسته منذ بداية

الدرب.. كان الصمت هذه المرة غريبا به روائح خوف.. اندفعت مسرعا.. رغم الصمت المحيط تمنيت لو لم يرك أحد..

***

فى الحجز بعد أربعة أيام قلت

- أول ما دخلت القرية كانت ساكنة..كأن العفاريت هى الوحيدة التى تبقت بها.. كانت أمنيتى أن أصل إلى بيت أخى سريعا فلم أفكر فى ظل هذا الفراغ الممتد.. ولما خطوت ناحية البيت تفاجأت بمن يحيط بى.. نحو عشرة رجال متشابهون١٢٥

ألقوا بى على الأرض.. مرغوا وجهى فى التراب.. كانت رائحة الحيب تملأ أنفى..ثم تركونى فى سيارة مظلمة.. فزعت وارتبكت روحى تماما.. وفجأة انتابنى استسلام غريب.. فأصغيت للحديث وسمعت لأول مرة عن مقتول وقوارب صيد..

***

ممدد أنت فى قلب المعتقل لا تعرف شيئا عن الذى يتحدثون عنه.. يبدو أنك محتاج أن تعرف نفسك من جديد.. وأن تسمع أكثر ورغم ذلك كنت تشعر براحة غريبة فى ترحيلتك الجديدة

- اسمك أبو زيد على حسن
- نعم
- عضو فاعل فى الجماعة الإسلامية
- لا
- كنت ناوى تفجر المركبة السياحية
- أبدا

الشيخ[١٢٦]

يسير الشيخ أبو زيد على مهل.. يتريث كل خطوتين.. لا يمد قدمه للأمام تماما، يتحسس موضعها حين يهم بالخطو يعمل حسابا لنفسه المتردد، الذي يخذله أحيانا ويرفض الخروج.. بل يحبس نفسه بين شهقتين، بما يدفعه للجلوس في أقرب مكان متاح أمامه.. ويلمح التعاطف يطل من زاويتين ضيقتين لكل من يقف أمامه.. كان يتمنى أن يكون وحيدا يعاتب نفسه الخائن الذي لا يلتزم الهدوء.. وحين يزرق لونه أكثر ولا يعود قادرا على رفع أهدابه ولا فتح العينين يسلم جسده للأيدي الملتفة حوله.

***

لم يكن عمله مدرسا في المدرسة الابتدائية مانعا لعمله آخر اليوم في ضرب الشِباك[١٢٧]، وتهيئته للصيد، هذا العمل ورثه عن والده

وعن والدته ورث مرض الرئة.. كان يسهر طوال الليل في سعال ممتد.. وبعد زيارات متعددة لأطباء المركز وبعد اختفائه في عنابر المستشفيات العامة لأسابيع.. يعود بعدها أكثر نحافة، وأكثر انطوائية.. لكن مع هذا النَّفس المتقطع المنهوك لا تعدم جرسا محببا وشجنا في قراءته للقرآن في صلاة المغرب.

***

كان تدين الشيخ معروفا.. تستطيع أن تقسم عليه بلا خوف من أن يخذلك.. حتى لم يشغل أحد نفسه بمعرفة مراحل حياته خارج هذا الإطار، فالمواظبة على الصلاة، والهدوء، والتعلق، والأخلاق، والحب سماته الخاصة التي تتحرك بجانبه طوال الوقت[١٢٨]

ومع هذا يوم أن أطلق لحيته، ورفض أن يصلى مع الناس صلاة التراويح في رمضان، وقبل ذلك رفض أن يقيم معهم شعائر النصف من شعبان، وارتفع صوته مهددا:

- إن ذلك بدعة..

من يومها والناس علمت أنه خرج ولم يعد.. كان صوته الشجي لا يزال يتردد في الصلاة.. أصبحت إقامته في المسجد شبه دائمة.. ما عدا يوم الخميس.. تمر سيارة بيضاء "تويوتا" بداخلها من يشبهونه تماما في الهيئة والوضاءة[١٢٩] ويغيبون.. لكن قبل صلاة الجمعة تجده يجلس في الصف الأول.. ترى دمعتين مترقرقتين في زاويتي عينيه، قد يلعن صوته الذي لا يساعده على أن يرتقي المنبر ليتحدث ويعظ الناس، ويقول الكثير مما يود قوله، يحذرهم من

الجحيم الذي ينتظرهم بدلا من ذلك الذي يتحدث بكلام مغلوط ويضع عينيه في ورقة أو كتاب ويقول ولا يعي يشرح ولا يقرب المعنى، ثم ينهي صلاته بكل تلك البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان..

بعد أن تنتهي الصلاة يحاول أن يصل إلى الخطيب كي يوبخ أو يعدل، لكن الوهن الذي يصيبه في تلك اللحظة يمنعه.. اشتد عليه المرض، كان عليه أن يذهب لمستعمرة الصدر، وأن يعالج بـ"الكورتيزون" لفترة ليست قصيرة.. لكنه كره حياة المستشفيات، التي عانى منها منذ أن كان طفلا صغيرا.. تظل تلك النحرات الصدرية تعذبه طوال الليل.. ويظل ساهرا يعد النجوم ويقرأ القرآن.

لم يقو منذ صغره على الصيد الذي يحتاج لمجهود عضلي قوي؛ لذا سعى لضرب الشباك، وكان هاشم"[١٣٠] قد اتفق معه على أن يضرب له ثلاثة أشرطة[١٣١]، وأنه سوف يذهب لسوق طما ويشتريها، كي يجهزها له؛ لأنه سيحتاجها بعد موسم الكبك.. ولما تأخر هاشم إلى ما بعد المغرب، شغل هو نفسه بإعداد بعض الشباك القديمة لديه ووصلها معا بعد أن أزال الجزء الممزق.

***

بدأت الدائرة تتسع من حوله.. لم يعد الوحيد الذي يلبس الثوب الأبيض طوال الوقت، ولا الوحيد الذي يطلق لحيته، ولا حتى

الوحيد الذي يمتعض من تلك الزيادات التي يضيفها المؤذن في الأذان مصحوبة بالصلاة على النبي في آخر الصلاة، ولم يعد الوحيد الذي يذهب بالسيارة التويوتا يوم الخميس.

اتسعت الحلقة المتشابهة في المسجد.. جلسوا جميعا في دوائر مغلقة، أخذوا طريقته في الكلام، لكنهم نسوا أن يأخذوا منه الحلم.. كانت بهم قوة وشباب، رأوه متخاذلا لضعف جسده، لم يدركوا قيمة الأشياء، أصبح المسجد مقصورا عليهم؛ هم الذين يقومون بالشعائر جميعها، يوقفون المارة يأمرونهم بدخول المسجد.. ثار الناس على هذا الأمر، وحدثت مشادات قوية على الطريق بينهم وباقي القرية التي رأت مسجدها يسلب منها.. فما كان منه سوى أن تنازل عن قطعة أرض له قبلي البلد.. ولم يمر أسبوع حتى كانوا قد بنوا مسجدا من دور واحد سقفوه بجريد النخل وجزوعها قويت الجماعة واستبدت.. ولم يعودوا يرجعون إليه في شيء.. ظهر شباب يفكر ويكفر ويلغي ويقرر.. كان حنينه للمسجد القديم يشده كثيرا فيذهب إليه يصلي فيه.. لكنه أحيانا ما يختفي تحت غطاء السعال لمدة أسبوع أو أكثر

***

تحول إلى رمز، لم يعد الأمر يخضع الآن للرؤية الشخصية، كان ينظر إلى محراب المسجد يحاول أن يفهم تلك العلاقات التي تشابكت وتداخلت، حتى إنها وصلت حد الخصام والعداء بين بعض أفراد الجماعة، لكنه لم يقو على تعديل الأمر، بدا الانشقاق

واضحا، وهو نفسه اعترف بأن التيار قد جرفه بعيدا، فلم تعد المياه ساكنة كما كانت، فقد تحركت روحه وخرجت من دوائر معينة ودخلت دوائر أخرى مختلفة.. البيوت التي كانت تشاركه الأسرار.. الطرقات التي كانت تخبره بخبايا المارين.. كان ابن الجميع الطفل المريض الذي لم يكن أي واحد يسمح لنفسه بأن يسئ إليه، يدخل البيوت في أي وقت، لم يعامله الأطفال كند لهم، ولم يكن التعاطف مباشرا يؤرقه بل كان يلبس ثوبا آخر[١٣٢]

***

الأيام التي توالت في عمره لم تكن متشابهة.. بل كان لكل يوم رونق خاص.. أشياء بسيطة يلاحظها هو من خلال الذى بين يديه من حياته.. كان يحب أن ينظر إلى الدنيا من خلال شبكة الصيد، وهو يضع الفلْ والرصاص.. تتسلل أصابعه بين فتحات الشبكة، حينما يحس بالتعب يستلقي على ظهره، ويضع الشبكة عل وجهه ويجعل عيونها المربعة فوق عينيه.. ويرى تلك التداخلات التي تصنعها الخيوط الدقيقة الحادة القوية مع الإضاءة المنعكسة.. وكذلك لما تتداخل الظلال، وتتداخل صور طفولته بشبابه.. حينها يتحرك الطفل العليل من داخله.. يحاول أن يتسلق الرف الطيني[١٣٣] ليتحسس الأشياء المرصوصة، حينها تكتمل رؤيته.

***

كان لحشرجة نفسه واستماعه المستمر له.. أن نظم حياته على هذه الأصوات الصاخبة.

***

الجلوس في غرزة عرابي[١٣٤] شيء لم يعرفه قط.. حتى لما حدث الحريق الذي أصاب بيته وعلت النيران والتهمت كل شيء عدا مصحفا أخضر الخط؛ لأنه ألقى بنفسه عليه.. ولم يخرج هو بغيره.. تعاون الناس على نقل أشيائه القليلة إلى بيت السيد عرابي الجديد الذي لا يسكنه أحد، والذي تمثل الغرزة الجانب الأمامي له، بعد اقتطاع جزء من المنضرة[١٣٥] وتحويلها إلى حجرة مستقلة تفتح للخارج، على أن تقوم تكعيبة العنب بالحماية الخارجية؛ إذ لما كبرت تدلت أطرافها فسترت الجميع.. وكان السيد عرابى يرى فى ذلك رضا من الله عليه[١٣٦] والغرزة المظلمة هى ثلاث دكك خشبية متراصة حال لونها فاسودت تقريبا.. وحصير في منتصف الردهة لمن ينتشون لدرجة أنهم لا يملكون أنفسهم فيسقطون أرضا ويجلسون عليها..

***

كان فعل الاختيار من الأشياء التي لا تؤرق الشيخ فقد استراح منذ زمنه الأول وقال:

كل شيء نصيب.. والخيرة لله..

لكن رواد غرزة عرابي ما زالوا يملكون الاختيار.. يجلس فيها محمد عمران ساعة من الليل.. بينما السيد حسانين تقريبا يتبادل الأخبار من على رأس التكعيبة ويرفض الدخول.. والدرديري القائم النائم في المكان الذى يتحرك بدلا من السيد عرابي.. فيسأله السيد عرابي عن الأشياء وأماكنها فيجيبه وهو متكئ على جنبه.

كان يراهم مفسدين فى الأرض يأتون المنكرات فى وضح النهار وينتهكون ستر الليل.. وكان يكره تلك المعاملة الحسنة التي فعلها معه السيد عرابي الذي استضافه في بيته حتى تمت تهيئة داره مرة أخرى.. وكان يسمعه يطلب من هؤلاء العصاة في الغرزة:

- أن يخفضوا الصوت لأن الشيخ أبو زيد في الداخل.

آه.. كم حدثته نفسه بأن يقيم فى المسجد.. لكن رهبة بيت الله فى قلبه كانت أقوى من أن ينتهكها.. وكان السيد عرابي يقيم الغرزة ويطلق عليها "الخص في بيته الجديد غرب البلد في مواجهة النيل.. وبعيدا عن الطريق العمومية؛ لذا كان للجميع أن يمارسوا حريتهم، وبهذا الفعل علق السيد عرابي في رقبته جميلا لم يعرف هو الخلاص منه.

***

عندما قرر الشباب تدمير غرزة عرابي، وقف حائرا، تناوشته التناقضات التي تحيط بالناس وتحيط به شخصيا.. تمنى أن يرى في النوم ما يطمئنه على السيد عرابي.. طلب منهم أن يكلموه بالحسنى مرارا، قالوا له:

- هذا صنف لا يقتدي بالحسنى أبدا..

نذر نفسه للحديث معه، أبدوا موافقة.. وبعد صلاة العشاء كان خص السيد عرابي يحترق عن آخره، وتكعيبة العنب تختلط بالنار وتتسرب منها رائحة الخشب المحروق.. بينما هو لم يغادر المسجد بعد.

***

قبل موسم الكَبَك كان قد أرهق نفسه تماما في كثرة العمل.. يحمد الله أن الكَبك يكون في الصيف في الإجازة المدرسية؛ حيث يكثر العمل ولا يستطيع أن يجد متنفسا للخروج.. فقط ما يكفي للصلاة ثم يعود يجلس القرفصاء.. بينما يربط الشباك بمقبض باب خشبي على مرمى البصر منه ويظل يفرده حتى يستقيم ثم يطعمه بالفلْ والرصاص مستخدما خيوطا من القطن القوي.. بعد أن ينتهي هو يبدأ الموسم، ويكون هو في غاية الإرهاق، هذه المرة قرر أن يعتزل الناس إلا فى الصلاة، الناس يعودونه على أنه مريض، ومتى لم يكن مريضا؟!.

***

وعندما علت الضجة في مغرب هذا اليوم[١٤٧] وبدأ الصياح ثم انطلقت الأعيرة كثيفة، هب واقفا يحدث الناس عن الذي يحدث.. ثم وجد في نفسه قوة كي يجري ناحية النهر، وجد المركبة السياحية مضاءة تنعكس على الماء الأملس بهيئتها الضخمة الأسطورية.. تسير ناحية البر الشرقي في حركة مرتبكة تشعرك بتوترها ولما حازت البر ألقت الحبال وجرى الرجال والأطفال يمسكون الحبال ويشدونها ناحية نخلات حياة.. جرى وسط الأطفال يوجه ويصيح أن اعقدوها عقدتين.. بعد دقائق هدأت المحركات وأطل وجهٌ مرعوب وصاح.. لم يفهم شيئا من صياحه.. ثم ظهر محمد عمران على البر يحمل على كتفيه رجلا.

***

عندما جاءت ابنة حياة تتهادى يبدو عليها الاضطراب الشديد الذي لم يؤثر في مشيتها كانت نظراته تتبعها.. تدوس حيث تدوس١٣٨، يشعر باضطراب شديد بداخله.. حاول أن يغض بصره لم يستطع، ولم يقدر، ولا حتى يريد.. كلما أمسكت رسغه وبحثت عن الوريد كي تعطيه مصلا ظل يرتجف ساعة بعد أن تغادره.. كلما شم رائحتها الهادئة عندما تسند ظهره تساعده على الاعتدال ينسى أنه مريض.. كلما نظرت إلى عينيه المتعبتين اتسعت كل الرؤى أمامه.. كلما تذكر أنها ابنة حياة ثارت روحه غضبا عليها وعلى نفسه.. وكلما تذكر ما به من مرض ووهن، قال:

ولا تزر وازرة وزر أخرى

- ربما تفعل ذلك مع كل من تعودهم.
- ربما تضحك هكذا للغادي والرائح.
- ربما تعرف آخر
- ما يدريني أنها ليست مثل أمها؟
- وكيف أعرف أنها قد ترضى بي؟

***

جلس الناس على البر ينتظرون.. ولما أبصروها تخرج، التفوا حولها، لم يفعلوا هذا من قبل.. أصبحت أرواحهم متعلقة بها فالشرطة في الطريق.. وهم يريدون أن يعرفوا ما الذي حدث للمصاب؟ وكيف ستنقذه وتنقذهم جميعا؟ كان إحساسها مختلفا هذا اليوم لم تعد تكرههم وتحقد عليهم.. تمنت لو تعود

وتقبل المصاب وكل واحد على المركبة السياحية، فلم يلتف أحد حولها من قبل، أرادت أن تطمئنهم، أن تقول لهم إنها ستفديهم بنفسها لو لزم الأمر، فقط.. ابقوا حولي دائما.

***

وضعوا ظهورهم على شقوق الحيطان.. واستعاذوا بالله من الشيطان الذي يسكن الماء ويطير مع أنفاسهم في الهواء.. فجميعا مدانون لا يمكن الحديث عن متهمٍ واحد ولا حتى مجموعة متهمين.. وليست هي بالقضية الشائعة التي تضيع بسبب تعدد الفاعل، لكنها تعني أن الكل مسئول عنها بنفس درجة التعمد.

***

فى اليوم التالى بينما هج الناس فى الغيطان وفى البلاد المجاورة، وجد فى نفسه رغبة كى يصلى فى الجامع القديم.. صلى الظهر ومعه ثلاثة فقط.. وصلى العصر وحيدا انتظر أن يأتى أحد حتى يصلى صلاة الجماعة.. لم يأت أى أحد وقف منتصبا ورفع يديه إلى السماء ونادى:

رب هذه بلدة ضعيفة وأنت أعلم بها منا.. إنها بين يديك فارحمها يا أرحم الراحمين فى الصلاة راح فى بكاء شديد، بعد انتهاء الصلاة، كان المتشابهون يقفون على الباب ينتظرونه١٣٩ .

المنسيون

الذين يملكون إجابات كاملة أدعى للشك فيهم(١٤٠)

***

كانت هوجة.. كل الذى يمرون عليه أو يمر هو عليهم يلقون القبض عليه.. حتى تكدست تخشيبة البدارى.. بعد ذلك أفرجوا عن خلق كثيرين؛ لأنهم استطاعوا أن يلفقوا أمورهم ويثبتوا أماكن وجودهم.. وظل الآخرون الذين لم يعرفوا رتق الحكايات.. أو كان وهجهم عاليا..

***

أقسى الذى يصيب أهل الماء سكنهم فى الصحارى.. وجدوا أنفسهم بعد التعذيب فى حفرة لا علاقة لها بالشمس.. كانوا يتعكزون على أرواحهم المصدومة ويعتمدون على جهلهم الذى هون

عليهم الأمر فى البدايات.. فقد ظنوه أمرا مؤقتا وحده الشيخ أبو زيد كان يعرف الخطى المشئومة المقدمون عليها.. لم يأت من قبل إلى هذه الظلمات المتراكمة[١٤١] لكن قراءة التاريخ ورؤية الأصحاب تكفيان كى تتنبأ بالخطوة القادمة.

***

عامر يراقص خيالاته عند الساقية القديمة التى تشوهها جدران الزنزانة.. ما زال يرى الجمادات تركض.. لكنها هذه المرة كانت تركض خوفا وهلعا.. يغمض عينيه ويستحضر الراحلين.. يقسم أن يسعى إليهم فى قراهم البعيدة التى لم يكن يسمع عنها من قبل.. الراحلين الذين التقاهم فى ظل الزنازين.. منهم من لمحه وهم يعبرون به ليدفنوه فى الرمال الحارقة.. يدفنونهم على مقربة من الباقين كى يبصروا أنفسهم فى تلك الحفر الضيقة المغلقة.. لم يعرف كل أسمائهم كانوا يلتفتون إليه فى عبورهم.. كأنما يقصدونه هو بالذات يودعونه بالعيون سرا لا يعرفه.. يمر فى الصباح على الحفرة الجديدة المغطاة.. وينسج الحكاية من ألم العينين اللتين رآهما.. يقول لهم:

- ليكن تنفسكم منتظما.. أعرفهم واحدا واحدا كما أعرف قبوركم المخبأة فى الظلام.

***

عوض معبد يشاغل الشياطين يجيد لغتهم ومحاورتهم.. وهم على لؤمهم وجبروتهم يحتاجون إلى شياطين الفطرة.. يصل

للأماكن البعيدة فى قعر روحهم يكشف لهم كما من الشر لم يكونوا يعرفونه فى أنفسهم..

***

الصبى الذى جاء إلى المعتقل وعمره لا يزيد على الخمسة عشر عاما مرت عليه هنا أعوام لا يعرف عددها.. تتعلق عيناه بالمجلات المتراكمة على مكتب المقدم.. يعرى النساء من ثيابهن القليلة المتبقية.. يستمنى فى روحه على النساء منتفخات الأثداء اللاتى يشعر بتصلبها عندما يلامس الصفحة البلاستيكية.. نظرتها الشهوانية تدفعه أن يخرج من صمته.. دعوة صريحة بأن يفترشها على مكتب المقدم ويزيح كل هذه الملفات جانبا والمقدم ينظر فى عينيه قائلا:

- ما الجديد يا عوض؟

تنغرس عينا عوض أكثر فى الصورة المجسمة للممثلة الأمريكية يلحظ الحز الواضح للباسها الداخلى.. فيتهدج صوته:

- نعم ينوون الهرب..

يتحفز المقدم أكثر ويستجمع الهواء بصعوبة:

- متى سيحدث ذلك؟

أصابع عوض على مكتب المقدم تمارس عبثها الصغير تدلك الإطار.. بينما العرق ينز من بين عقلات الأصابع بعدما لاحظ أن الحلمة مطبوعة تماما فى البلوزة:

- ربما يوم الخميس فى الليل..

يحمر وجه المقدم ويمتقع ثم ينتصب واقفا في أى ساعة ياعوض؟

الأخدود الذى بين الجبلين الصغيرين يكفى كى يهتز عوض معبد اهتزازة قوية ثم ينهار على كرسيه:

- لا أعرف بالضبط..

بعد أن يفارقه يلعنه.. ويأخذه الزهو فهو من زنزانته قادر على فعل مالم يقدر عليه الأحرار..

***

"الغريب يعيد رسم ومحو خطوط متداخلة ومتشابكة على الرمال الجيرية، خطوط عشوائية.. قد تتضح فتأخذ هيئة وجوه معينة تقترب شيئا فشيئا بعد تمعن يعرف أنه وجه على همام.

إحساسه بالفقد كان قد استقر فى داخله منذ زمن.. فهو أقلهم حزنا وأقلهم فرحا.. تتساوى لديه النزعات.. يتحدثون عن العودة وهو لا يعرف ماذا يقول ولا أى عودة يريد.. الفرار من هنا هو كل الذى يرغب فيه، لا يريد العودة لأنه لا يعرفها

الغريب أنه لم يفكر فى أبنائه ولا فى الغرب.. كانت اللحظة التى أمسكوا به فيها وبيتهم القديم على مرأى منه هى لحظة الميلاد الحقيقى له.

كان هو الأكبر سنا.. لم يجدوا فى تاريخه ما يمكن أن يحمِّله نتيجة أمر مثل هذا الحدث.. لكن وجوده الغريب فى ذلك اليوم هى

النقطة التى لم يفهمها أحد ولا حتى هو لماذا جاء فى هذا اليوم بالذات؟

زاره كل الأولياء الصالحين رآهم بعماماتهم الخضراء ينصبون سرادقا فى حوش المعتقل.. يدعونه للحضور.. فاعتاد كل ليلة أن يتسلل من أسفل باب الزنزانة للممر فيلتقيه أحمد الفرغل يأخذ بيده برفق.. ثم يلتفون حوله فى الحلقة التى تضيق وتضيق.. ويلمح هناك وجوها يعرفها..

فى البداية لما كان التعذيب بمواقيت صباحية وليلية معروفة.. كان الأولياء يظهرون من الجدران الجافة الصماء[١٤٢] يمسكون بيده.. ورغم شيبته يرقص على ترانيم المدح كلما مسته الكهرباء.

***

هاشم الراقص على هدب الليل.. بساقه اليسرى التى يجرها خلفه تقريبا.. صمت.. وصمت.. وصمت.. ظنوه خرِس وصار أبكم..

فى كل نوبات التعذيب لا ينطق.. الكلاب المتوحشة.. إلقاؤه على الرمال الحارقة.. الكهرباء.. الماء.. الدفن حتى الرأس فى الرمال.. يجر ساقه خلفه ولا ينطق.. نسوا صوته تقريبا.

على قدر ما سمع من الحكايات كان يريد أن يعرف الحكاية المكتملة لساكنة طما، يغمض عينيه.. ويلمح تسرب يده من يدها.. بينما تحاول ذكرى الإمساك به فى أول دخوله البلد فى ذلك اليوم البعيد، والوجوه المتشابهة أن تحضر فى المشهد الآن، تمد يدها المتوحشة من كل

مكان وتلقيه أرضا.. لكنه يبعدها ويغمض عينيه يعيدها بعيدا إلى أطراف المشهد ويصر على لحظة الانفلات الأخير لليد الدافئة.. يجاهد الذاكرة جيدا، يهز رأسه كأنما يسقط منها الذكريات السيئة الكثيرة التى تطفو الآن وتتحول إلى طوفان يكاد يبتلعه..

الأربعون التى زحفت فى صمت أيضا إلى وجهه ونبتت على مفرق شعره وكللته بالشيب لم تشفع له بشيء حتى مع نفسه.

***

محمد عمران كأنه لا يعرف لماذا جاء إلى هذا المكان.. يتحرك كأنما خرج للصيد فى الصباح ولم يعد بعد من رحلته الطويلة.. تشعر بانفصاله عن الحدث.. حتى إن العسكر الجلادين لما رأوه يصرخ بصوت مرتفع كانوا يبتسمون.. لكن بانتهاء الأمر قد يفاجئهم ويسألهم سؤالا غريبا لا علاقة له بالحب ولا بالكره كأن يقول مثلا:

- هل هناك من يسكن حولنا.. بدو مثلا؟!

أو يسألهم فى حيادية عن إجازاتهم وحياتهم وعملهم البعيد الصعب.

كان الجلادون يستغربون من هذه التصرفات.. فمحمد عمران سريعا ما كان يطفئ الرغبة المتوحشة التى تتملكهم.. هم الذين يحسون بذاتهم عندما يرون الضحية تستنجد أو تستغيث، آخر الذى يقوله محمد عمران:

- بلاش الكلاب كهربونى.

كوك.. كوك[١٤٣]

ياسيدة النساء..

حامية الكَبك، وكاشفة الظلمة فى الليل البعيد، فى الليالى المظلمة التي خاصمها القمر يا موقدة النار فى جوفى الطفل، حياة.. أسألك الطفل الذى كنته..

***

من على نخلة نافع ينعق غراب مشئوم بصوت مشروخ مبحوح، ينعق على كل شيء، تتبعه الغربان التى لم يكن يومها عاديا، فقدأطلقت من بين العراجين والكحوف المتبقية صرخة حادة، وتبعتها صرخات مشابهة، وصرخات، وصرخات.. وانطلق الضجيج الذي أطاح بكل سكون الصباح. لم يتعلم الإنسان من الغراب أن يواري سوءة أخيه فقط، بل أورثه الشكوى، والجأر

بالفجيعة، وخسارة الموت، والحزن، وأن يدس يده في قلب الزمن، ويغفل عينيه عنه كي يسرق الحزن من داخله رويدا رويدا..

كانت الصرخات مفاجئة وعلى إثرها اجتمعت الغربان على النخلة المائلة بقحافها القليلة وجريدها المتآكل، تثبت سيقانها الصغيرة النحيفة وأظفارها الممتدة بمخالب ضعيفة على الجريد الأخضر كي تتجنب الشوك بسهولة وبلا وعي.

***

طارت الغربان شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، ترددت وعادت، وهي تصيح وتئن وتسقط دموعها على المارين أسفل النخل، والسائرين في الطرقات، وفي الدروب الضيقة وعلى حافة الشط.. تلسعهم دموعها المالحة، ويحسون في صدورهم بنغزات حادة.. يسبون اليوم المشئوم الذي بدأ بنعيق الغربان..كوك كوك..كوك..

***

انقضى الشهر الأول على الغائبين.. لم يسمع الناس عن قضية ولابراءة ولا حكم ولم يعرفوا أماكنهم.. ولم يزرهم واحد من أقاربهم.

***

تآكلت الشهور، ونسي العادّون إلا امرأة كانت روحها تسكن سوق طما تنتظر كل يوم أربعاء وهي تعلم أنه لن يأتي، وأخرى كان جوابها سريعا..

***

عندما تكتمل دورة العام وتأتى المسميات نفسها لظاهر الأشياء، فى البداية نتوجس خيفة.. لأن الأشياء المتشابهة تحتوى فى داخلها على تناقض مر، نقول فى نفس اليوم حدث كذا، لكنه أبدا لم يكن اليوم نفسه، إنها مخاتلات الذين يخشون الزمن، يظنون أن الحياة متشابهة، لكن من فى السجون والمعتقلات يظنون أن اليوم الأول عبر ثقيلا مرا، لكنه ليس بثقل اليوم الآتي، وعندما يأتي العام الثاني والثالث يدخلون قاموس المصالحة مع الزمن..

***

النهر ما زال يحف في الشرق، امتص عظام الأرض وأنهك عمودها الفقري، وأصابها بالوهن، لامس الجبل في مناطق كثيرة فحفر الإنسان طريقا في قلب الجبل، وهج الباقون إلى بلاد الشمال في القطارات الصدئة التي أكلت أعمارهم، منهم من بصرته المدينة فعاد وله شجون يلمح ما خلف الأشياء، ومنهم من أكلته المدن، فضاع بين براثن المحطات، وقضبان السكك الحديدية.

***

كانت الغربان ما زالت تشرق وتغرب فى سماء الحزن، تفزع العصافير، بينما النهار لم ينتصف بعد، بل يستغل النهار البيوت كي يقاوم طغيان الظل يحاول أن يمسك بتلابيبه، لكن البيوت بلا قصد تبيع النهار وتمد صورتها على الأرض تغازل البوابات الموصدة

والتايات التي تسكنها عفاريت النهار، ما بال عفاريت النهار تنشط في ذلك النهار المر وتطغى بكل سطوتها على الظل تأكله.

***

من عفاريت النهار خرج عوض معبد لا يلوى على شيء مندفعا تجاه غاية ما، أصبح فارها نحيفا يتمايل مع الشمس والريح، يمد قدميه للأمام ويتحرك بسرعة ملحوظة، يجلس على المقهى الجديد للسيد عرابى على أول البلد بعد مزاح مكرور مع على الدرديرى، يمد يده في جيبه ويخرج سجائره الأجنبية والكثير من النقود يعد منها جزءا ويعيد العد، ثم يتجادل مع واحد كان ينتظره، تعلو ابتسامته في النهاية، وبعدها يضع في يد الرجل النقود بعد أن يأخذ منه نقودا بلون أخضر وبعد أن يتحقق منها، ويقلبها عدة مرات ويقربها من عينيه وأنفه، ويضعها في اتجاه الشمس.

يدس الرجل ما أخذه منه ويغادر المقهى، ويظل هو يمزح مع الموجودين حتى يسأله واحد بقصد أو بدون قصد عن الاعتقال والسجن وسيرة المركب السياحي، فينسى ما قدم من المباسطة وتنقبض أعصاب وجهه، ويختنق صوته، ويصمت، قبل أن ينفجر في الحكي.. يتجاوز عن الكثير والكثير ويحاول ألا يذكر الحكايات التي ساقتها له الذاكرة.. الصعق بالكهرباء، الماء البارد، الكلاب المتوحشة، يكاد يبكى، لا يحفل بالجوع، ولا بالموت الذي كان يطرق الأبواب كل صباح، يأخذ أو يسامح، لكنه يعيد ويزيد في صوت الغناء الذي كان يسمعه بالليل، يمر محشرجا بين الأبواب

الحديدية للزنازين، والعباد الذين التقاهم في جيوب السجون لا يعلم عنهم الناس شيئا بعد أن بعدت بهم الشقة، وانتهوا عددا، يحدثهم عن الوجع والضحك، وتناقض الأشياء، يهم واقفا فجأة ويغيب، يمر على كل الدور التي تقع على يمين المقهى، في نهاية الشارع يطرق بوابة قديمة فيأتيه شبح من الداخل يتوكأ على حروف صوته، تُفتح البوابة قليلا وتطل العينان الشاحبتان لعجوز متهالك[١٤٤]، يسلم عوض معبد عليه ويقبل يده، يمد عوض يده فى جيبه كى... وتهم اليدان المتصلبتان بالإمساك بهما وهو يهمهم، يضع عوض ما في يده في قلب يد الشبح، ويغير الحوار عن الناس والأحزان والأفراح، في عودته يقول، لولاك لقضي علي، كم تحملت من الوجع والألم والجلد والتعذيب بدلا منى أنا الموجوع بك، وأنت الموجوع بالعالمين.يحس بأن هما ثقيلا انتهى من على كاهله اليوم، يرفع عينيه للغربان التي تحلق منذ الصباح، تروح وتجيء، على كل الشواطئ والجيوف التي مر عليها والتي أكلها النهر

***

الحياة هي تلك التي نعيشها بين ضفتي الرغبة[١٤٥]

منذ أن خرج هاشم هج في القطارات الخربة، ولم يمر حتى على سوق طما قطع الطريق على القطار في أسيوط، ظلت الشباك تحت الدكة القديمة تأكلها الفئران خيطا خيطا وتصنع منها بيوتا مهترئة، من نافذة بلا زجاج مجرد طاقة فى الفراغ تصب الهواء البارد على وجهه، شاهد البيوت تركض مبتعدة والأشجار وحقول

القصب تلوح له منكسرة، رآها حزينة تضع عينيها في الأرض، أو تطوح بهما بعيدا..

***

ما إن وصل إلى البلاد البعيدة حتى وجعه الحنين للشباك، والفلوكة، والسمك، والطريق، والرمال البيضاء، ولذعة البرد، وإلى ساكنة طما، التي لم يلحق ليعرف كل حكايتها، تسربت إليه بعض الحكايات من بين الشفتين الساحرتين، لم يقو على مغادرة المحطة، يقول لنفسه أعيش في منفى، كلما هم بالخروج من المحطة شاهد الزحام الشديد والوجوه المتغيرة، كان يخشى ويتراجع، كم مرة ركب القطار العائد واستقر أمام نافذة بلا زجاج كي تفتح عليه طاقة الهواء البارد، يتحرك القطار وهو واقف على المحطة، يلعن القطار الذي لم يسرع في الحركة.. نبهه أكثر من مرة، لماذا لا يتحرك فجأة؟ ،لم يطلق صفارته المشئومة، يقول انتبه يا هاشم، إلى أين تذهب في بلاد من الجوع والخوف؟!!!!.

أصبح يرى الأشياء فى خياله فقط هو اليوم يصطاد من أذان الفجر حتى الآن، هذا يكفى، غدا سيكون فى فرح بيت فلان، ويوم آخر هو فى مأتم، أما ساكنة طما فكان يراها في كل امرأة تشف وتبرق، يتجاوز الجميع ويسرع إليها (س.ح.م) الموسومة على صدره، تسمح له بالاقتراب، يحمل الأشياء فى صمت، وعيناه تتحسسان وقع قدميه على السلم الخلفى الضيق، الرائحة النفاذة، التى تهجم عليه بعنف، فيقبض بقوة على الشيالة الحديدية، إلى أين

تهاجرين بكل هذه الأثقال؟ عندما تدس في يده الأشياء، يجدها ما تزال قادرة على لكزه في قلبه، بعد أن تتجاوز المحطة يحسها بعيدة عنها، يتركها في حدة، ويعود يبحث من جديد عن ساكنة الحارات الفسيحة من روحه.

***

القطارات المتلكئة على القضبان متساندة على الخلق.. هى أكثر الذي يربكه، الغربة تأكلك شيئا فشيئا، عادة ما تبدأ بالتلكؤ في المحطات المجهولة، ثم ينسى القطار ميعاده، أو تنسى أنت القطار.

كانت الحركة هذه المرة عنيفة، أبصرها قادمة، كان على الرصيف البعيد فى آخر المحطة ورائحتها التي وصلت إليه تقوده، قفز، تحرك القطار المنسي، شيء ما يجبره على التراجع، الرؤية تتخبط، ملمس القضبان قاسٍ، وجد نفسه يبتعد، وشباك الصيد تحيط بوجهه، أياد وعيون تلوح له، وامرأة/ هي تلطم وجهها، وزئير القطار يبتعد فى داخله، وماء برائحة السمك والطين يصب على وجهه، وكراسات قديمة، وكلاب تنهش في جسده.

***

الغربان تقريبا استقرت على النخل المتناثر فى أنحاء البلدة، وتردد صدى صوتها المشروخ بين كل الجنبات، حتى ورد النيل خسر كل اخضراره.. جف، وجفت معه كل الفراديس التى كان يبصرها الطفل الذي ظن أنها قادرة على نقله إلى الجنان عند خزان أسيوط، تردد الصدى فبان له جسد أسود مرعب يظلل القرية، كانت الحركة

الرتيبة رغم القلق الذي يبثه الصوت تدفع إلى الأرواح بذلك اليوم الشبيه الذى داس على القرية بحذائه الأسود القاسى اليوم هو ذكرى الرعب الذى عاشته البيوت والحجارة والنهر، نفس اليوم الذي تكرر على عودة الصندوق المغلق بالشيخ فى قلب الليل، عندما فتحت الجبانات فمها البشع وتلقفت الجسد الهزيل الذي لم يقو يوما على الصراع واستقوت هى عليه..

***

آه ..فى الظلام قصت ابنة حياة شعرها.. وأرسلته تعويزة تغلف روحها.. تسجدى كى ترى روحه كل صباح شاخصة تحت شجر السنط..

***

المشاعل المعلقة فى أكتاف الرجال، التى تنعكس على الرمال الصفراء المعجونة بالماء.. التى تنزل إلى القبر المفتوح بالمناولة، وحركة الفؤوس التى تجر التراب، ثم تولية ظهورنا للقبر، والتحرك جماعات ناحية الطريق.. وهى تقص شعرها الآن فى ساعات الوجع.

***

عامر كل صباح فى أسيوط يحمل طبنجته الجديدة ويجلس غير بعيد عن الوجوه المتشابهة.. يتابع حركتها المنتظمة والعشوائية.. يقترب ويبتعد ويركز فى الحركة الرتيبة..ويترقب اللحظة.

***

جفت مواسم الصيد، لم يعد سوى محمد عمران الذى يصر على صيد الكَبَك، يتحسر ويجتر الذكريات أكثر مما يصطاد، كان ابنه المتزوج حديثا عادة ما يغافله، ويذهب ليصطاد السمك بالكهرباء في الترعة، يلعنه محمد عمران.. ويصمت.

صمت

هوامش

١- المعدمون يسكنون شقوق حيطانهم، يترقبون الشمس فطورهم الدائم، ويعقدون أكفهم حتى لا يسألوا الناس شيئا، لهم تصاريفهم فى الحر والبرد، وللميسورين تصاريف أخرى مخالفة.

٢- العوز ترنيمة الحاجات المستعصية تلك التى إن أردت أن تتفلت منها فعليك أن ترتدى الخيش وتتيمم بالتراب.

-٣ من الممكن أن تختلف الأشياء، فليس مُلحا أن يكون الحمار هنا.. وليس المقصود انتقاص الحمار، لكنه المظلوم دائما فى سلسلة السيد والعبد.

٤- الموتى هؤلاء الذين انتصبوا واقفين فى قبورهم وعيونهم شاخصة، تبصر الرائح والغادى، وآذانهم تتنصت للكلام البعيد.. ويرون أبواباً من الغيب لا نعلمها بعد.. لأنهم انتقلوا إلى مرحلة غيب الشهادة، لذا عندما يأتون إلينا فى حجراتنا المظلمة.. لا يقفون بعيدا عنا ولا يهمسون.. بل يصيحون "نحن ندرك ما لا تدركون

٥ - التاية: بيوت الخوص والذرة.. آخر الذى نملكه وأول الذى ملكه الإنسان..

٦- خاتم الحسن ..عندما يبدأ جمال الوجه من أسفل ويصعد ويصعد

٧- البلحة حرام؛ لأن التسلل إليها كان فى غفلة من صاحبها، لذا أصابتها لعنة لا يعرفها إلا الذين ابتلوا بها، وذلك حينما يفتشون فى ضمائرهم عن ذنوبهم البسيطة التى ارتكبوها كذبة صغيرة اعتراض على مشيئة.. التقاط بلحات ليس لهم الحق فى التقاطها.

٨- الحركة فى هذه الحالة من الممكن أن تكون طبيعية.. فمن الممكن أن يحدثها جرو صغير قط وقطة يتشاكسان.. دجاجة تبحث عن متنفس كى تضع بيضة تؤرقها، ذكر ماعز صغير أراد أن يتنسم بعض الهواء..لذا

لم تلتفت البنت الصغيرة لتلك الحركة المألوفة..

٩ -لا يلتفت الناس كثيرا إلى الفاعل.. يتعلقون بالفاعلة وأنا سقطت فى هذا الفخ؛ فما لدي من الحكايات يخلو من ذلك الفاعل الذى ربما يكون قد نجا بفعلته.. وربما لم ينج منها.. لكن ظلت القرية لفترات طويلةلم يحدث بها شيء مشابه.

١٠ - الكرمش العطن: الفاسد من الحق.. المتبقى من الأصل.. البلح بعد أن عبر ذروته واستلقى بقايا.. تجعد بما يكفى كى لا تلتفت إليه..

١١ كان فى بلاد الله يغيب بالسنين ويترك هذه الفرسة النافرة.. كان لابد من عقابه.. لم يقل له أحد هذه العبارة: تمنيت لو قالها رجل عاشق.

١٢- الأم المحفور قبرها فى الليل.. حدوتة الليل البديلة بدلا من نص نصيص، أحمد الغول، الزريزرة.. ناسجة الهم المفتول بالدم الذى ينسكب من عيون الأمهات..

مانحة قلبها للمريدين.. ومن المريدون؟، الباحثة عن صورة باهتة فى صندوق قديم لزوج يلبس جلبابا أبيض.. أرسلها من مدن لا يسكنها سوى الوحيدين..

حياة.. تبصر بنتا تأتى وتروح تخشاها وتخشى القبر المفتوح بالليل ..حياة تنتظر مع المنتظرين..

١٣- طابع الحسن وصمة بينه وبينها.. تشاركا فى إخفاء أصلها هى بالبلحة المحرمة، وهو برمل الجزيرة الناعم الذى لا يترك متنفسا.

١٤- سيدة الكَبَك وحارسة القوارب ومانحة البركة لكل الصيادين.. ماسكة بيد كل صبى حاول أن يخطو فوق ظهر قارب أو يجلس بين مجدافين.. ناشرة شعرها الأسود المفرود على حر الشمس فى القيلولات المرة، وبأنفاسها الدافئة تهبهم المجد فى ليالى الشتاء.

١٥- النهر هو الآخر القوى.. على طول تاريخهم حاولوا أن يوقفوه ما استطاعوا العجز كان نتيجتهم الكبرى والأخيرة.. سنوات الدميرة تركت آثارها عليهم..كلما هم النهر بهم حملوا خفافهم وهجوا السد

العالى وناصر صنوان للسكن الدائم.. لكن النهر الحبيب لا يتركهم وحالهم بل ينخر كالسوس فى عروقهم.

١٦- الحكايات قوتهم الليلي يجترونها طوال الليل بعد أن تغيب الشمس وتهبهم إذن الحكى.. فى النهار لا يكون للحكايات معنى.. فالخيال، الستر، الصبر، الخوف، الأمل، النوم، الأحلام، الكوابيس، كل ذلك فى الليل.

١٧- الصبية هم الذين يشدون أغطيتهم.. فالمسروقون والقتلى لا يمكنهم أن يشدوا شيئا الآن سوى أرواح الظالمين والقتلة.. ويتركونهم جسدا فقط بلا روح.. جسدا تسمع تجويفه الداخلى يتمايل على جانبيه بلا أمل فى الاستقرار.

١٨- موسم الكبك: موسم صيد لا يشبه مواسم الصيد الأخرى.. موسم ليلى يبدأ قبيل غروب الشمس ولا ينتهى طالما كان الليل قائما.. يأخذ النيل عرضا من الشرق للغرب.. شباكه عيونها واسعة تشفق على السمكات الصغيرات التى تتفلت منها مكتفية بالليل القاسى.. صيادوه يبادرون الليل بصدورهم العارية.. وشايهم الثقيل المر وسجائرهم القليلة..

١٩- تهاويم عشاق وكارهين كلٌ منهم يراها بطريقته.. لكن حياة فى الحقيقة لما رأيتها- وأنا عاشق- كانت عيناها رائقتين ليس بهما أثر للون الأحمر المزعوم للعفاريت ..هادئة وحزينة بما يكفى لتكون مضطهدة فى العالم الآخر ..يا رب حتى هناك أنت ضائعة يا حياة.

٢٠- متجهة إلى بلاد آثرها الفراعين فتركوا فيها قبورهم ودفئهم.. يأتى إليها السائحون بمختلف أعمارهم ..كي يسكنوا فى تفاصيلها بعضا من الوقت.

٢١- كان عليها أن تقرأ التاريخ والجغرافيا والعادات والطوبغرافيا والاقتصاد والحالة الاجتماعية، والمواسم.. حتى تتجنب تلك الخروقات التى فعلتها والتى فعلت بها.

٢٢- لم يعرف أحد من أطلق الرصاص أولا حتى بعد أن هدأت الدنيا وانفضت غبارتها ..وأصبح الحكى رجعا لصدى ما قد حدث.. لم يقطع

أحد بمن أطلق الرصاص أولا، ربما كان حمودة السيد فهو أول من انتهكت المركبة حرمته ومزقت شباك كبكه.. وربما فرج محمدين لأنه يحتفظ بالفرد دائما بجانبه وعلى أهبة الاستعداد.. وربما غريب عبيد الله لأنه أهوج مندفع.. لا يتوقع أحد رد فعله.. بين الهجوم والمدح لمن قد فعل أولا يضيع اسمه ولا يقطع أحد به.

٢٣- هناك من لمحه بين السطح والماء نازلا على أم رأسه.. يحاول أن يمسك الهواء.. فيخزله.. فيسقط.. ويسقط..

٢٤- ملابسهم بسيطة ومعظمهم عارى الصدر، وبعضهم له عضلات ضامرة على الرغم من قوة أذرعهم بسبب التجديف.. وكلهم شعره جاف وقصير قد توجد عمامة صغيرة بسيطة شوهتها الحركة فسقطت على صدورهم مجرد شال خفيف أبيض، رمادى، فاقد اللون، شواربهم كثة تقريبا.. كلهم سمر أو سمر جدا.. ونحيفون.

٢٥- كم أنت قاس يا عوض معبد تسلقت الجانب الأملس كجرذ صغير، ألصقت وجهك وبطنك وساقيك، هل ثبت أطرافك ولسانك كمسامير، أم درت إلى ظهر المركب حتى النهاية؟ حيث لا شيء سوى المحركات.. ولا سور سوى واحد بسيط.. قفزت بجسدك العارى كسمكة القرموط اللعينة، وكان السلم أمامك مباشرة يدعوك..

٢٦- المغرب يعد معهم أشياءهم البسيطة من الطعام القليل "الواحد ، والجلوس أمام التليفزيون ينتظرون الحلقات المملة التى يشتهونها..

٢٧ - يلهمها أحيانا لصياد يحب الصيد الليلى.. فيترك قاربه ينساب مع التيار ويطلق مواله:

بيوت البشوات بقت جراجات وشوانى..
وخدها خدام كان علاف وشوانى..
ربالى جرح وغايظنى جوة القلب وشوانى..
وعدّى واحد من وراه قاله صباح الخير يا باشا..

يرضيك يا زمن.. يا عديم الوفا.. تخلى قليل الوفا بقى باشا..
مش قادر اطلعها من حنكى.. واقول للدون يا باشا"
يقول النائمون على الفرش المهترئة الذين لم يدخلوا بيوت باشوات ولا حتى بيوتا واسعة فى حياتهم، يقولون ..اللاااااااااااااه..الله.

٢٨- النار تشتعل كى يهتدى التائهون قرب البر تتمايل مع النسيم الخفيف.. كما يتمايل الخوف والقلق فى أرواحهم.. النار تشتعل كي يخشى السائحون تلك الظلال المحيطة بها.. أناس لا يرونهم إطلاقا إلا على قهر المسافة.. من خلال منظار مكبر أو عبر صورة ضوئية.. يبصرونهم عددا متشابها.

٢٩- أطاعها محمد عمران وهو عادة لا يفعل ذلك.. فهو يخالفها كلما أتيح له أن يخالفها.. قرابة بعيدة يراها مؤذية إن سئل عنها أنكر وأما "إنصاف زوجته فتذهب إليها سرا.. إن أرادت منها أى شيء.. خاصة إن مرض طفل وبعد أن تكون "إنصاف قد جربت كل الوصفات ولم تجد حلا تذهب إليها وتنكر ذلك أمام محمد عمران..
أطاعها محمد عمران هذه المرة.. وكانت له أسبابه الخاصة.

٣٠- كلمة عادية تقصد بها نقل المسئولية من على كاهلها الصغير لا تعنى أن المستشفى جيد ولا غير ذلك.. وربما هى كلمة تدربت عليها لتقولها.. وربما إحساسها بالخطر

٣١- التبليط: عندما نصبوا النطع بين صخرتين، ووقف زبانية الخديوى بالبلطة يشحذون بها أعناق الرجال.
عندما يهوى الحد الرقيق كالموسى على المنطقة الفاصلة بين الرأس والجسد.. تخترق حتى تفاحة آدم البارزة التى تنفصل لجزأين.. وجدك على النطع مستقر كما يستقر الأبطال.. ومبتسم كالشهداء..
التبليط: تاريخ تحدثك عنه الصخور والرمال.. زمن التبليط.. والجدود الذين هجوا إلى أرض الله الواسعة عبر الصحراء من يعرف الطريق.. ومن يجهلها.. ومن يضل فيصل بقدميه إلى جحور الضباع.. ومن التقمه الجوع والعطش فاشتاق إلى النهر وإلى الخلاص حتى ولو بحد البلطة.

التبليط : الأطفال المختبئون مع أمهاتهم فى المغارات.. والبيوت المسدودة بالطين.. والأم البارکة على وليدها بين ساقيها تريد أن تدخله مرة أخرى إلى رحمها.

٣٢- مستعمرة الكوليرا : لم يعد منها أحد من الذين خدعوا..

يتخيلها الآخرون الذين لم يذهبوا دارا كبيرة حزينة كئيبة مظلمة، تُسمع منها أصوات المعذبين الذين يسعلون طوال الوقت ويتقيئون دما أسود.

وفى النهاية..

يدفنون فى حفرة سوداء عميقة جماعات جماعات.. يغطونهم بالجير الحى كى يأكل أجسادهم المهدودة بالوجع.. لا يحس الواحد منهم حتى بحنية الموت.. فلا يعرف رأسه الميت استقر على صدر من.

لذا هم..

يختبئون فى غيطان الذرة خشية أن تمسك بهم "الحكومة" وتحتجزهم فى المستعمرات، يموتون فرادى محزونين وحيدين لا يعرفهم أحد..ولا هم يعرفون أحدا.

يقولون فى ألم:

نموت فى بيوتنا

فكل الذين ذهبوا لم يعودوا بعد ولن يعودوا..

صمتوا للأبد فلن تلمس أرجلهم الحافية تراب الطريق مرة أخرى.. فقط سيركضون فى جروحهم.

-٣٣ ونحن سنظلمهم أكثر ولن نعلق عليهم بشيء

٣٤- على الرغم من القبليات المتنافرة، والتقاتل اليومى والسب واللعن بينهم إلا أن جدهم الواحد كان قد حط على شبه الجزيرة وغرس أول شجرة موز أو وجدها مغروسة.. لم يتذكر الآن.. بينما كانت زوجته تخلط التراب بالماء وتؤشر بداية البيت الذى مازال حتى هذه اللحظة على طرف الطريق الترابى.. وكان الجد يدخن ويقطع الجزيرة طولا وعرضاً، وعندما عز عليه الولد ولم يأت.. أخذ زوجته فى ليلة صافية وسارا على حافة النيل مسافة

طويلة حتى وصلا إلى تلك المياه الفوارة فى قلب الدوامات.. ووهبها للنيل فى ليلة قمرية شاهدة عليهما.. ظلت تغطس وتقب وهو يكشف قلبه للسماء.. ولما خرجت مبتلة افترشها على الرمل الأبيض.

٣٥ - ألقاب وأسماء لنا أن نعرفها: فتى / عامر وشيخ / أبوزيد.. وعاشق / هاشم.. وصياد / محمد عمران.. وملعون / عوض معبد.. وغريب / لم نعرفه سوى غريب

٣٦- فى الحيز الفاصل فى الليل بين نصف عبر وآخر يثقب الوقت بآلته الحادة يصبح الجو مثل مفرق شعر لغولة شعثاء، تأكل القمل والحشرات المتساقطة من شعرها، وتئن بعدودة عن يتيمة فى صحراء ليس لها سوى جسد قبيح تنتظره أفعى فاغرة فاها ولها أنياب زرقاء.. فى هذا المنتصف تجدد الريح دماءها، وتعيد طرح الأشياء من جديد.

٣٧- أى صوت هذا الذي يسمع من بعيد؟ كانت الأصوات متعددة.. وفارق كبير بين ما يدون فى التحقيق وما تتلوه الحكايات؛ لذا كثرت الأصوات وسُمعت من بعيد.. لكنها لم تخرج من داخل أنفسهم.. كان التحقيق هو الصوت الحقيقى / الظاهر الذى يسمع بين الأطراف، أسئلة لا علاقة لها بالحكاية الحقيقية، لكن هناك الصوت الحقيقى / صوت الحكاية منها ما يدركه السارد، ومنها ما يضيفه النص.

يسأل المحقق أسئلة مباشرة يمكن قول الصدق فيها أو الكذب.. لكن السؤال الحقيقى لم يسأله قط ولم يقله، كان يطرحه الواحد منهم على نفسه.. من أنا؟

وأنا الشاهد الممتد على طول الحكايات..أين كنت؟ كيف استمعت إلى كل هذه الحكايات، وهذا الوجع.. حتى أنا نسيت السؤال الحتمى من أنا؟

لذا سنركض نحن مع المجروحين فى حكاياتهم الأصلية حتى نعرفهم ونعرف أنفسنا..

٣٨- أولنا الضي.. وذلك حين نمد أكفنا الرقيقة إليه.. نحن والفراشات.. هو الحلم المفقود دائما وأول الهداية.. فالحكايات تقودنا لبؤرة الضى التى تزداد شيئا فشيئا.. ثم تنطفئ فجأة.. بعد أن تكتمل الحكاية الحزينة..

هل هو نقطة البدايات أم نقطة النهايات التى نصلها منهكين.. مقطوعى الأنفاس؟ أو لعل الضى نقطة دخولنا القبر الفاتح فمه والنوم على سرير الرمل الناعم..

٣٩- للملوك سمات متناقضة بين البطش والحنو والليل والنهار ملكان يلبسان التناقض ويعيشانه.. قد يتزاحمان أحيانا فيشتبكان فى الشفق والغسق.. وكل منهما يحشد جنوده وأتباعه ويتناحران عليك أيها الملك الحقيقى.

٤٠- وكأن المآذن منابر الموت.. أول ما تسمع صفير الميكرفون فى غير وقت الصلاة تبحلق عيناك وتنتصب أذناك للحقيقة.. وتُصلب على صليب الوقت "إنا لله وإنا إليه راجعون.. انتقل إلى رحمة الله المرحوم....، ولا أراكم الله مكروها فى عزيز لديكم..

الموت / الحقيقة المكروهة.. حين تقف صامتا فى مكانك على الطريق الترابى.. تحفظ الاسم لمدة دقائق ترددده بينك وبين نفسك.. وتتأمله الآن ممددا على الدكة الخشبية تعبث به يد رجل لم يكن يحبه.. تقلب فيه.. يمينا ويسارا.. وهو مستسلم للماء الدافئ..

٤١ - لا يخلو الأمر من شائعة أصابت الشيخ أبو زيد.. وذلك قبل اشتداد مرضه وتوقفه عن الأذان.. واكتفائه بالصلاة إماما بصوت شجى ضعيف.

٤٢- فهو دائما ما يضاجع الأرض في هذه العتمة.. يهب لها الصمت المفزع.. وتهب له الندى في الصباحِ.. حصيلة ليلة ضجت بالغرام.. أما في الليالي القمرية فالليل أكثر عطاءً يهب النور فتخرج الأرض ترقص على وقعه حتى افتضاح الأمر حين يستيقظ الفجر ظمآناً.. وإذ يتمطى تختفي بهجة الأرض وتسكن.

٤٣- نافع الذى تعمد فى النيل صغيرا انزلق من بين يدى أمه إلى قلب الماء بسهولة.. ولما كان نحيفا جدا وضئيلا وضعيفا لا يقوى على رفع ذراعه.. ألقته أمه على حين غفلة فى النيل كى تأخذ ملائكة الماء الشياطين التى تسكن روحه وتأكل جسده.. وتهبه الملائكة العافية المختلطة برائحة الماء

التى تظل تلازمه طوال حياته.. لكن الشياطين والجن لم تفارق جسده إلا كى تعود أكثر فتكا.. تطرحه أرضا ويظل يسف فى التراب حتى يسود لسانه وفمه ووجهه.. ثم يعتدل ويبكى وأمه تحضنه وتبكى يشفق الناس ويضحكون..

كانت نخلته/ أمه التى بقيت له تكاد تنحنى عليه تحضنه.. وهو يحبها ولا يجد راحته إلا بالنوم تحتها.. حينها تنحنى النخلة أكثر وهو يمنع بلحتها عن الآخرين ويحرمها على الناس.. وكان الصبية يتسللون إليها فى غفلة منه فى وقت القيلولة.. كى يسرقوا بلحاتها الغريبة الشكل الأسطوانية كفخذ امرأة جميلة.. نافع الذى لم ترض واحدة من البنات المستديرات الأفخاذ أن تتزوجه.. قلن: مجنون يسكن الجن فى بيته ، ولما أعرض عن الزواج ولم يطلبهن قلن: "إنه متزوج من جنية.. تأخذه معها تحت الأرض..

الصبية الذين يتسللون إلى نخلته فى الظهيرة يتساءلون عن الجنية التى تزوجها نافع وعن هيئتها.. لكن ابنة حياة لم تطرح هذه الأسئلة لما تكورت على البلحة التى أهدتها لأمها

٤٤- الجن والعفاريت بعيونهم الحمراء تفزع على الدرديرى، وتحسها الدواب وتخشاها فى سيرها فى الليل.. فتأخذك أنت الشجاعة وتصيح بهم: "لتنتقموا ممن قتلكم تعايرهم بالموت المبتور الذى أصابهم على يد الآخرين.. هؤلاء الذين ماتوا وأعمارهم ناقصة.. يخرجون كى يكملوها بكل حنقهم على العالم.

٤٥- المساطيح المستطيلة أو المربعة أبدا لا تكون دائرية الشكل.. حيث تنام الكيزان هادئة متجاورة.. لا يأتيها القلق من أية ناحية.. ننام بجوارها فى حمايتها.. أو هى فى حمايتنا.. أما اللصوص فيغمضون أعينهم حين يسرقون الكيزان ولا يقدرون على مواجهة نظرتها العاتبة.

٤٦- وبكل غباء الذاهبين.. لم يسمع السادات لـ جيهان ولم يرتد الواقى من الرصاص، وخرج مغرورا واثقا.. بينما الموت يتربص بأنفاسه ويعد

ويعيد العد.. الباقى ساعتان وأربعون دقيقة.. ساعتان وتسع وثلاثون دقيقة ساعتان وثمان وثلاثون دقيقة.. ويعيد العد ساعة وخمس دقائق.. ساعة وأربع دقائق.. ساعة وثلاث دقائق.. يمكن للسادات أن يعود إلى بيته ويرتدى الواقى من الرصاص..لكنه وبكل يقين من جفت أقلامهم وطويت صحائفهم.. عبر السادات ولم يلتفت لظل ملك الموت الذى كان يهمس فى أذنه بتلك الفرص المهدرة..

ملك الموت الذى استعد من الصباح وهيأ كل شيء.. وآثر أن يشهد بنفسه هذا الموت الكبير كى ينهى الأمر سريعا وألا يعتمد على جنوده فقط.. فهو لا يريد أية أخطاء، ولا عذابات.. دس يديه فى "القفاز الأبيض.. وألقى نظرة على العرض العسكرى.. وتنهد..

٤٧- مرت دهور قبل أن أطأ مرة أخرى الأرض والمساطيح.. لكننى كنت كل ليلة أقلبها فى الشمس.. أهزها كى أتأكد أن الوقت قد حان..

٤٨- أول ما نقسو يكون على اللغة.. فبين الرضا والغضب وبين النفور والقبول نلجأ إلى اللغة نسكنها فى قوتنا.. ونختار كلمات قوية معبرة ونستطرد.. وفى لحظات الضعف نقتصد بشدة فتنقص الحروف وتتآكل أطرافها.. ونلتهمها.. وحين تقسو الحياة نقسو على اللغة ونلجأ إلى الإيماءات..

٤٩- دائما ما يخترق الصمت المحيط بالمكان.. يأتى فجأة ويجلس فجأة.. لحضوره دفء الحكايات، وارتحالات جديدة للبلاد التى زارها.. وزرتها أنت فى خيالك معه.. السفن الصدئة التى استلقى على سطحها البلاد التى أكلت شبابه التسلل عبر الجبال للهروب.. وحتى السجون التى راوغته وراوغها تكسب مرة وتخسر أخرى..

الزمن عنده ليس أكثر من ذكريات..

٥٠ - يحرسون الجسد المنهك الذى كان يقاوم الهزيمة التى شرخته من الداخل وخربته.. كانت تتمثل له صباح مساء.. فى الفقراء الذين يراهم فى أحلامه يبتسمون.. والأعداء الذين يراهم فى أحلامه يشمتون..

عندما مرت البنت العشرينية ضئيلة الجسد.. التى رسمت الدموع على وجهها

واديين واضحين مرسلة شعرها القصير على كتفيها.. مخترقة الصفوف بينما النعش يمر حاول منعها.. دفعته.. ثبت ساقيه النحيفتين.. غرسهما في الأرض.. صرخت.. وصرخت.. جاء الضابط سريعا.. حاول أن يقول.. ممنوع دفعته بكلتا يديها.. سقط الكاب الذى على رأسه.. أبى هناك يمر الآن قال: دعوها.. أفسحوا لها الطريق خطوة..ثانية ثالثة.. سقطت على الأرض.. جرى ناحيتها دس يديه أسفل ظهرها.. الدموع فى عينيها متحفزة..حملها كطفل صغير بين يديه.. أراد أن يقول لها.. أنا أيضا حزين.. لا يصدق أنه يحمل بين يديه ابنة ناصر "كلنا أبناء ناصر قالتها له مبتسمة فى سيارة الإسعاف.. صدقنى.. دفء جسدها ورائحته مازلت أحسهما.

٥١- الأنظمة متشابهة جدا.. أول الذى تبنيه هو الجدران العازلة والمعتقلات.. ويفضلون أن يسكنوا بيوت الزنابير كى يتعلموا ثم يتسلقوا أرواحنا ويلسعونا فيها.. نبكى ونبكى ونعض أيدينا من الألم..

٥٢ - كان مريضا فى نفسه حشرجة، رقيقا باسما كما يليق بشيخ يرى الله كل ليلة.

٥٣ - الصمت هو الذى يجرحنا إذا ما حاولنا الكلام يجرح حلوقنا من الداخل ويلجم ألسنتنا.. نصمت مستمتعين بالصمت ثم نصمت كارهين له.. ثم نخشى أن نتكلم فنكتشف الخوف الذى نحسه فى داخلنا.. وننكره.

٥٤ - لا نرى سوى نصف أشياء تزحف أو تجرى.. نعرف المارين من أقدامهم الحافية أو من أحذيتهم المتهالكة.. وأحيانا من ظلالهم النائمة على الأرض تقلدهم فى الكثير من حركاتهم..

٥٥ - يرسم تفاصيل يومه على خريطة الصلاة.. يقول فى نفسه سأفعل هذا بعد صلاة الظهر سألتقى فلانا بعد صلاة العصر رجل يتوكأ على بوابة الجامع حين يهم بدخوله.. يتريث قبل الأذان خوفا على العصافير التى

تسكن فوق الجامع.. وأنا الذى كنت أظن أنه يتأخر فى رمضان كى يفطر أولا معتمدا على الجامع الغربي..

٥٦ - ليست كل الأسئلة قادرة على سحب الإجابات من داخلنا فما الذى سيقوله الشيخ أبوزيد فكل الناس تصلى وفى الوقت نفسه لا أحد يصلى.. سؤال لا يمكن الإجابة عنه بسهولة

٥٧ - ربما تحس الخوف الذى نجده فى أنفسنا.. خاصة أن أرواح الغائبين عنها هذا المساء تحوم حولها.. فكل أرض الحوَّاش وحيدة هذا المساء فى قلبها البرد.. وبأبدانها الرجفة.. تحدث نفسها عنَّا نحن العشاق..

٥٨ - فى البدايات تختلط الأشياء الشيخ أبو زيد الذى يعذب فى الطريق ولا يقوى واحد على الخروج لنجدته.. ثم اسمى الذى يتصاعد من بين عذابه وذلك الصمت القصير الذى يجعلهم يحددون هدفهم القادم..أكره الشيخ أبا زيد فى هذه اللحظة ربما الخوف جعلنى أتمنى لو قتلوه قبل أن يقول اسمى..

٥٩- النقطة الأولى للتيه.. عندما تقف وحيدا على رأس الأشياء المتنازعة.. فكل الإشارات التى وضعها الله على ضفتى الطريق لا تصل بك إلى شيء ..كل الطرق تتحول إلى أفران تحرق الذى داخلك.. ويظل هذا الإحساس مسيطرا عليك.. حتى فى حال الوصول تجد نفسك قلقا قد ضاع منك شيء لا تعرفه..

٦٠ - القديم.. أنت الذى ترسم دائرة تجلس وسطها وتجعل لها مخرجا واحدا ثم تغمض عينيك عنها وتدور وتدور حول نفسك.. ثم تحاول أن تخرج من المخرج الصحيح..

وأن تسرب نفسك داخل ذكرياتك..وترتدى ملابس الطفل الذى يخرج من جانبك كل صباح ويسير ويسير ويسير

٦١ - فى البداية تعاملت على أن الأمر لا يخصها.. ومتى كان أى أمر يخصها؟ لكن العيون التى توجهت إليها والأيدى التى قلبت فيها وتحسست مواطن عفتها ثم طرحوها على ظهرها يريدون أن يبصروا ما

بين فخذيها.. كان النبت صغيرا وقليلا وعندما أغروها بالملابس الملونة والأوانى الصغيرة التى صفوها بجانب الحجرة.. حينها ألقت أسئلتها التى ليس لها إجابات مفهومة على الأقل..

٦٢ - بينما هى تغمض عينيها وتتذكره فى أول ليلة بعد أن أغلقوا الباب عليها.. بكت تريد أمها.. وألقى هو سيجارته فى غضب وأمسكها من شعرها وسحب عصاه الخيزرانية الصغيرة وقربها منه ونظر فى عينيها حتى أرعبها.. وغمغم بما لا تسمع أو لا تعى وظل قابضا على منبت شعرها حتى سكتت من الألم ثم شدها ناحيته أكثر فأغمضت عينيها حتى اندفع الألم فى داخلها فصرخت وصرخت ولم تر شيئا..

بعد ذلك أصبح هو من يغمض عينيه..

٦٣ - أخرجت السعادة من موطن الألم ورأت أنها الإرادة التى عجزت هى عن فعلها.. لم تفكر فى القادم يكفى أنها تعيش لحظتها الآن.. تفتح صدر جلبابها كى تدخل النسمات القليلة إليها.. تريد أن تضحك وأن تبكى وأن تجرى وأن تمسك بعروستها القطنية.. تحس بالوجع وبدوار يحيط بها..

وعلى الطريق نسيت ورقصت فى الفجر ورقص معها كل المصلوبين على ساعات الليل.. المكتوب عليهم ألا يناموا مادامت هناك أرواح معذبة أو أرواح منعمة.. أو أرواح بين بين..

٦٤ - حين تسقط الشمس بين أشجار جنينة الزقلة.. تتحول إلى حبة رمان كبيرة وثقيلة تفسخت من الحلاوة.. وظهرت الحبات مرصوصة حلوة وداكنة اللون.. حينها يسقط أول الصيادين- من عليه الدور- أول شبكة فى الماء.. تغوص الشباك محملة بالرصاص.. وتطفو من فعل الفلْ والجراكن.

٦٥ - كانت أمه العائدة على الطريق.. قد عرفت بعضا من طريقها.. فقد حط رجل لا يعرف أحد من أين أتى.. يقولون من طما.. ويقول آخرون بل من بلاد بعيدة من الجنوب البعيد.. يعيش فى طما فى حوارٍ ملتوية لايصل إليها

العابرون.. استطاع هذا الرجل أن يدس يده أسفل "توبها" وأن يعرف الطريق إلى لعبها الصغيرة..

يوم أن فارقت عوض وتركته عند أمها.. بكت ونزعوها منه بالقوة.. قالت ستزوره كل يوم.. في السنوات الخمس الأولى رآها مرتين.. في السنوات العشر الأخيرة لم يرها بعد.

٦٦ - امرأة لها طقوسها في الفرح والكره، إذ تلقاك فلها طقس في سلامها بأن تحتفظ بيدك قليلا وتهزها في ود، إذ تفرح فابتسامة تكفي.. إن جاء وقت الحزن تعتزل كل الخلائق في بيتها القديم، سيدة الصمت والكلام.

٦٧ - حدثته عن أحلامها.. وعن الابن الذى يزورها فى المنام كل ليلة يسمع شكواها وعتابها عليه.. ثم ينهض كل ليلة ينفض جلبابه ويقول: لديك عوض يسمع ما تقولين..

حدثته عن الموت كل ليلة من الوجع لولا عوض.. حدثته عن الأيام التى حتما ستطويها والقبر المفتوح لها يبنونه فى بطء.. ثم يعود إليه عوض..

وفكر هو فى البيت الواسع الذى سيرثه عوض..

٦٨ - كثر الغائبون وتنوعوا بين الأموات الذين تعرف طريقهم وتذهب إليهم تزورهم.. وبين الأحياء الذين لم تعرف لهم طريقا كانت تقف على رأس الجبانات فى أيام الجُمع بينما عوض يجمع "النبق من على الأطراف.. تبكي وترسل شكواها إلى ساكنى الجبانات والقبور المتشابهة.

٦٩ - كان للطرق نصيب الأسد فى حياته الأولى.. فطوال اليوم من درب إلى درب.. ومن النهر إلى الشارع.. ومن نخلة إلى شجرة نبق.. يختلس بعض الوقت ليخطف لقمة صغيرة من بيت جدته.. التى تبحث عنه فى الدروب المجاورة..

٧٠ - كانت الغنيمة تتنوع بين صغائر الأشياء لقمة يأكلها، أو سر بين اثنين.. يجلس فى الليل قبل النوم إلى جدته يحكى لها ما حدث فى الصباح.. ويحتفظ لنفسه ببعض الحكايات..

٧١ - فرج محمدين بعد عودته من رحلته الوحيدة من بلاد الحرب.. ظل

يحكى ويحكى حتى صمت.. فلما صمت أصبح أكثر حزنا مما ظن.. الكوابيس التى كانت تطارده فى الليل جعلته يخاف أن يغلق عينيه.. كل الذى كان يحكيه فى النهار يراه فى الليل.. صمت كأنما أغلق فمه بسلسلة حديدية فلم ينبس بكلمة يجلس فى قاربه طوال النهار حتى يجد رجلا غريبا.. فيتبدل حاله ويحكى ويحكى.. ويهتم به ويكرمه.. يقول: كنا لا نجد من يقول لنا كلمة طيبة فى محنتنا.. كل الغرباء فى مراكب الشحن التى كانت ترسو فى قريتنا كانت تسأل عنه.

٧٢ - البداءة هى كل الذى نبحث عنه عندما تنساب القوارب فى النيل متخذة دورها، يبحث الواحد فيهم عن صوته الذى يخشى أن يكون نسيه على البر أو فى البيت.. يريد أن يحس بانتمائه إلى شيء يخصه.. فيصيح ويغنى وينادى للبحث عن ونس فى الليل أو حتى لكى لا يصطدم به القادمون.

٧٣ - لا يعرف سبيلا للخروج.. غرفة مكدسة بعشرات الوجوه المرعوبة يستغربون مجيئه فى ذلك الوقت.. الذي تعلن فيه السماء غضبها على الأشجار والبيوت.. وعلى المغتربين الذين رحلوا حول حلمهم الوحيد..

٧٤ - الرحلة التى قام بها فرج محمدين مصطحبا الموت فى حقيبته الكالحة.. والتى كان عليه فيها أن يسبق الموت إلى تلك الحفرة القريبة.. أو إلى ذلك الكوخ المنسى..

أما الموت الذى أصابته لوثة فى صباحات الحرب.. أصبح لا يقبل سوى الدم.. ولا يرضى بالموت المحايد.. ربما جاءه فرج محمدين فى وقت تخمة.. فتركه يمر

٧٥ - لم يكن اختفاؤه غريبا لكن أن يجده على سطح المركب السياحى بعد كل هذا اللغط هو الجديد الذى لم يتخيله.. كان عوض عارى الصدر.. تنعكس على جسده العارى أضواء المركبة وهو يقفز بسهولة.. على السطح..

٧٦ - السوق لعنة لكل من يصاب بها.. تخرجه من نفسه وتضعه على حافة

الجنون.. تجعله ساهرا يتقلب فى ليله خشية أن يفوته التبكير وتجعل العاشقين يحلمون.. وسماسرة الإنسان يغتنون أكثر

٧٧ - هى البدايات قبل أن تنقسم الحبة على نفسها ويلين قلبها.. حين يغمرها الماء.. وفى رقة تتشقق الأرض وتطل النبتة الصغيرة بحثا عن متنفس..

٧٨ - تساومه على البقاء معك بقليل من الفلْ والرصاص، ويغازلك هو بلونه النيلى جدا وبيوته المتقاربة..

٧٩ - مدن الضوء والحلم تبنيها كل ليلة فى خيالاتك.. تدوسها بقدميك.. تنساب موسيقى خفية لا تعرف مصدرها.. فى النيل تمد عينيك للشمال البعيد لعلك تلمح بعض الذى تحس به..

٨٠- اسم لاتينى للمركب السياحى.. يحمل معنى أسطوريا قادما معها من بلادها بكل البهاء الذى تحمله معها..

٨١ - حيث يجتمع الإنسان والمكان فى شيء واحد ..ويكون اجتماع حلول.. أيهما ذكرت جاء الآخر بكل تداعياته..

٨٢ - فى كل المعاجم التى قد يطلع عليها محمد عمران الذى لا يجيد القراءة.. الباحة تعنى الوسعاية.. والوسعاية تعنى الرحبة.. التى يجيز علماء اللغة لها أن تنحرف إلى الرهبة.. فتجمع بين الخوف واتساع المكان.

٨٣ - لا يعرف محمد عمران دلالة الحلم رغم تكراره باختلافات طفيفة ليست جوهرية.. كان يتساءل ربما كان الحلم يدل على شغفه بزيارة أولياء الله الصالحين.. لكنها دلالة مباشرة لا تحتاج إلى أن ينز جسده كل هذا العرق فى صباحات الحلم المتشابهة.

٨٤- عملية الضبط مرهقة تماما، لا يمكن التأمل معها بطريقة سهلة، فلابد من حسابات دقيقة للماء ولمكان الجلوس ولدائرة النار.

٨٥- غداؤهما طوال اليوم وحتى العصر وعندما يعودان تكون "إنصاف قد أعدت قليلا من الملوخية الخضراء، أو البطاطس، وليس لمحمد عمران ولا لولده أن يسألا عن "الزفر إلا يوم الخميس.

٨٦ - يروق للكسالى والمترفين والعواطلية والشعراء أن يجلسوا فى تلك

الصباحات الصيفية المبكرة على شط النيل وأن يضعوا أرجلهم فى الماء..
الصبى ابن محمد عمران يحسدهم جميعا ما عدا الشعراء لأنه لا يعرفهم.
٨٧ - الهلب: الحارس الدائم للقارب..لا يسمح لنفسه سوى بجولة صغيرة لا تتعدى قبضة اليد الواحدة..
٨٨ - التفريد بسط الشبكة على صفحة الماء.. ومتابعتها.. إما أن تخدع أنت السمك.. وإما أن يخدعك الوقت..
٨٩- بين التفريد والتجديف يدفع السمك عمره.
٩٠- المدرة: قَدر شجرة السرو أن تشارك فى عملية الصيد.. فتضرب الماء بشدة وتسمع صدى الصوت.. فينزعج السمك من الصوت ومن طول الخشبة.
٩١ - "إنصاف فى يوم عودة أخيها من العراق ظلت تجلس فى بيت أبيها، ولم ترض بالذهاب مع محمد عمران إلى بيتها.. لأنها كانت تعرف أنهم ينتظرون خروجها كى يفتحوا الحقائب المغلقة والصندوق الحديدى الثقيل.. تعلم هذا جيدا.. ولو فعلت وغادرت لصفصف صباحها على قطعتى قماش.. إصرارها جعلها تشاركهم تقريبا فى كل شيء.. لما عادت ظلت تعدد الأشياء لمحمد عمران.. لكن أكثر الذى كان يرضيها النكد والضيق اللذان كانا باديين على زوجة أخيها.
٩٢- أحيانا يحتاج إلى أستيك كي يثبت أكثر، يضعه ثم يثنى الأطراف قليلا

٩٣- كانت الأيام المختلفة فى حياة محمد عمران كثيرة هذا ما تأكد منه بعد ذلك
٩٤- مع ذلك ظلت تلك الأمور مجرد تكهنات لم يقطع أى واحد بسبب محدد فيها.. وكأنه كان من قدر حكاية سعيد أن تظل عظيمة لها ثلاثة أسباب مثل كل الأشياء العظيمة تحمل ثلاثة أسباب.
٩٥- كان الشهيد سعيد نائما قرير العين بينما تبكيه العيون التى لم تشاهده قط..

٩٦- لم يلتبس الأمر على أى واحد.. ولم يعتقد أحد أنه كان وهما فما زالت رائحة الغرق تملأ المكان.. وكذلك العطور التى سرت برائحة سعيد.

٩٧- لم يكن سعيد هو الذي سقط فى المرة الثانية ..كان السائح الأجنبى الذى أصابته رصاصة الصيادين القاتلة.. لم يلحظ محمد عمران أية اختلافات جسمانية ..كل الغرقى المظلومين هم سعيد.

٩٨ - الاتجاهات شرطٌ لإدراك الوجود.. ومعرفة أين تقف الآن من غربك وشرقك.. تجعلك على معرفة بما يفكر فيه الناس والطير فالتيه هو ألا تدرك بوصلة روحك.. أو أن تختلط عليك..

٩٩ - يمنحك تعويضا عن دمك الذى سيتسرب منك وترتوى منه عيدان القطن.. وعن جسدك الذى سيجف تحت الشمس المتربصة بك..

١٠٠ - وقوفك على النواصى طوال النهار تتطلع لكل العابرات على أشعة الشمس.. اللواتى حركهن الحب والحكى فخرجن يبحثن عن أنفسهن فى تلك الرحلة القصيرة/ الطويلة للنهر يبتسمن عندما يعبرن بك برائحة المراهقة التى تنتشر حولك مثل تيس هائج.

١٠١ تحمله على ظهرك فى الطرق الغريبة.. كقربان تحمله إلى مكان ما لا تعرفه.. تأكل منه أنت والطير والنمل.. كل الذين معك يحملون أجولتهم التى انقطعوا بها عن البلاد والعباد.. صاروا جوقة من الزهاد الذين توحدوا مع العيش الناشف..

١٠٢ - مع كونك قد طورت وسائل الوصول للحقيقة.. وتمردت على معلمك ..فبحثت عن المعرفة من خلال التجربة.. والتجربة كانت مرتبطة عندك باللمس لا تؤمن إلا بالأشياء التى تلمسها.. كأن تلمس مؤخرة امرأة لمسة بسيطة.. ثم تحلل رد فعلها.. كنت تعرف العاشقات والمحرومات من خلال اللمسة الأولى ..قبل أن تتبعهن كجرو صغير

١٠٣ - تنتظرون الأتوبيس الذى يهل كبساط الريح فى الحكايات.. تجده فجأة أمامك بلونه الترابى الكالح الذى يعنى أنه قد عبر مسافات ومسافات قبل أن يتوقف أمامكم..قليل من التهيب والخوف على الوجوه التى تتردد فى

الركوب.. فيدفعها صوت السائق الغليظ.. فتمدون أرجلكم وتركبون..

١٠٤ - لا تعرف حتى إن كان للباشا بنت أم لا الخيالات فقط هى التى تصور تلك العلاقات غير السوية بين بنات البشوات وأولاد التراحيل.. هذه العلاقات الفاشلة.. لأنها تقوم على تآكل أحد الطرفين لصالح عجز الآخر

١٠٥ - فى الحقيقة كنتم مرابعية إلا قليلا تأخذون أجوركم المفروضة عليكم لا أجوركم المتمناة.. بل قد يكون للمرابعى حرية ادعاء المرض فهو يعمل بلقمته فإن مرض يوما فسيجد بعض الفتات المتبقى لديه من الأمس.. وأنتم معدودة أيامكم عليكم.. فى الشرق يعدون وأنتم فى الحوش الكبير تعدون.. للأيام شوك الأرض ودبيب حراسها من هوام الليل..

١٠٦ كان العيسوى هذا حادا كسيف.. يمر مندفعا كأنما هناك من يطارده.. يعمل فى مكتب محاماة فى القاهرة لكنه يسقط على القرية فجأة بما يذكر الناس بالنسمات الطيبة التى تهب عليهم فى صيفهم.. وبما يذّكره هو باندفاعه لما سقط فى النيل بعد أن فتحوا عليه وعلى زملائه كوبرى عباس فى ١٩٤٦ وغاص فى قلب الماء بفعل السقوط ثم اندفع مرة أخرى إلى السطح.. كان حينها ولدا قرويا قادما من الصعيد لدراسة القانون.. وعندما خرج فى مظاهرات ٥٢ بما أجبر الملك والإنجليز على حريق القاهرة.. شعر وقتها بأن فى جسده نارا.. وكلما عاد إلى القرية وجدها لم تشعر بثورة ٥٢ بعد.. وكأنها لم تقم.. كان كلما مر بجانبك وأنت على الطرف الآخر من الطريق.. ونظر إليك شعرت بخجل مع أنه لا يعرفك.. أحست أنك غريب فى هذا المكان..

١٠٧ - اقتطاف اللون الأبيض من الحطام المحيط.. والملمس الناعم الوحيد الذى تحس به طوال اليوم وثنائية الورد والشوك.. والنقاء والغبارة ..كل ذلك فى لوزة القطن الفاتحة نفسها لشمس الصباح.

١٠٨ - فى التراحيل تتشابه الأشياء.. نفس الصباحات فى مطلعها معتمدة على الفجر لا الشمس.. نفس الوجوه.. ونفس الطعام.. ونفس الماء الذى

تشربه.. نفس التحذيرات.. نفس الوقفة والاستعداد قبل القفز على شجر القطن الندى الذى يتحفز للسقوط.. نفس الشوك الصغير والخربشات الكثيرة.. ورائحة الجسد والعرق.. نفس الترتيب أنت بجوار فريال تمد يدك فى غفلة اللوز وتلمس ردفها.. تعاتبك بنظراتها بينما تتظاهر أنت بالغباء.. وتتظاهر هى بالغضب.. فى الصباح التالى لا تغير مكانها.. وتنتظر اللمسة المفاجئة.

١٠٩ - رجلان منكم ينتصبان كجذعى نخلة.. ويمتد بينهما فرع شجرة.. وينصب الميزان.. والعيون تروح وتجيء مع رمانة الميزان المتحركة.. وكلما انتهى واحد من الوزن تنحى جانبا وترك للباقين مكانا.. ثم تحملون تلك الأجولة الموزونة إلى المخزن.. بعد أن تقيد الحسابات فى دفاتر يحتفظ بها الخولى.. ويراجعها على همام.

١١٠ - الكتّاب الذى كان فى دوار العمدة.. وقد انتظمت فيه بعضا من الوقت.. وهبك القراءة وحفظ بعض سور القرآن وقريبك العائد من الأزهر وهبك الكتب القديمة والمجلات التى جعلتك تدرك أن الحرب العالمية قتل فيها أكثر من ٥٠ مليون إنسان.. وأن مرض الكوليرا قد انتشر فى مصر من فترة قريبة ومات فيه من مات.. وما زال الناس يبتسمون..

١١١ - عادة ما يكون استيقاظهم خدعة من شياطين الليل كى يدفعوهم إلى الأرق.. فى أحلامهم تحضر الملائكة والشياطين.. يصحو الواحد منهم ويمد عينيه نحو الحجرة المغلقة فى الناحية الأخرى.. حيث البنات نائمات يتقلبن فى أماكنهن.. يتمنى لو يعبر إليهن.. ويفترش الأرض بين أجسادهن الدافئة.. لكن على همام النائم تحت شجرة التوت كديدبان بين الحجرتين.. ينام كملاك / شيطان.. يجعل الواحد منهم يتقلب فى مكانه مرتين ثم يحاول أن ينام أو يذهب إلى الحجرة الثانية فى خياله ولأنه متسرع ويخشى على همام يعرى كل البنات مرة واحدة.. فلا يرى شيئا..

١١٢ - فى جحيم الأفكار التى تحيط بك لا تعرف الوصول إلى شيء.. ما الذى تريده.. هل الأشياء التى تراها أمامك حقيقية يمكن أن تلمسها.. أم أنك

إن مددت يدك طارت وتناثرت كرماد في الهواء؟

١١٣ - الذين مروا من هنا بكامل إرادتهم لا يعودون.. لأنهم في المرة الأولى لم ينتبهوا لنبش أقدامهم.. ولم يحفظوا العلامات.. أحرقوا كل أشجار المعرفة التي نبتت على جانبي الطريق.. واستسلموا للشوارع الغريبة.. وللبيوت الضيقة التي علمتهم أن يحصوا أنفاسهم.. وأن يعيدوا كتابة تاريخهم كأسرى حياة.. بدون بطولاتهم السابقة..

١١٤ - أغرته التفاصيل التي وجدها في البلاد البعيدة فسقط في هوة الضياع.. يعافر مع نفسه كي يجدها بالقرب من الموانئ المحيطة على الشواطئ المتشابهة.. وفي خطاباته المتشابهة أيضا التي يكتبها كل فجر ويحتفظ بها يرسم خطة العودة.. ثم لا يعرف من أين يبدأ..

١١٥ كنت أنت المطلوب.. هذا الذي تمثل في ذهن علي همام الذي تفاجأ بالباشا يريد منه أن يكتب بجوار الاسم خمسين فدانا" كيف لعلي همام أن يتخيل هذا الرقم على الورق.. لا أن يتخيله على الحقيقة!

١١٦ - غريب آخر لا يملك علامة على أصله.. يشبه كل الفقراء الذين التفوا حوله.. قالوا من اليمن البعيد جاء طائرا وسقط في الرهبة الواسعة.. وقيل بل جاء سائرا على قدميه من بلاد لا يعرفها.. وقيل من السودان غرقت مركبه في النيل بجوار قاو فعرف أنها البشارة..

١١٧ كيف طرأت هذه الفكرة على الذهن المكدود لعلي همام في تلك الفترة؟ لماذا فكر فيك أنت بالذات؟ ورجال قاو من هم أكبر منك وأرشد وأقرب لعلي همام تمتلئ بهم الترحيلة.. ربما فكر في توريطك.. أو فكر في إفادتك.. أو في العبث بك.. أو التخلص منك..

حتى علي همام لا يعرف لماذا فكر فيك؟ ومن ألقى على لسانه اسمك.. عندما بحث عن مخرج بين بين مخرج لا يعني الرفض أو القبول..

١١٨ كانت الحروف متلعثمة ومتداخلة.. كأنما تكتب حروف اسمك للمرة الأولى.. وأخذت فيها وقتا أكثر من اللازم.. الورقة قديمة وتحمل تاريخا قديما نظر الباشا إلى الإمضاء وطلب أن تبصم بجواره..

١١٩ - سلطان العاشقين . .الملك الحقيقى لبلاد الصعيد والشاهد على ذنوب المدينة منذ أن كانت ربوة صغير على تلة . . قد يكون أول ساكنيها . . ضاقت المسافات حوله . . وحدها قلوب العاشقين تسكن النسمات العابرة . .

١٢٠ - الذى أنت فيه اليوم . . هل يذكرك بشيء من ذلك الماضى الذى يتحرك فى داخلك طوال الوقت ؟

١٢١ - السرابات : فكرة الانتظام والتوالى . . حين تقف كل شجرة قطن بجوار أختها تنتظر نصيبها من الحياة والموت . .

١٢٢ - العطن الموسوم على قلبك فى ذلك اليوم كان الأكثر رائحة .

١٢٣ - تتذكر الآن الذى أصابك من الوجع على طول ترحيلتك التى كانت الأولى / الممتدة . . كلما طال الزمن أيقنت أن الرجوع أصبح بعيدا . . كان الشرق على بعد خطوات منك . . أحيانا كنت تسمع صوت الماء فى النيل كأنه يمر بجانبك . . لكنك لم تقدر على العودة مات الجميع ولم تشاهد منهم واحدا يدخل قبره تصل متأخرا ترى القبر فقط كومة من تراب .

مات أبوك فلم تحس بشيء من الألم . .كان يتمُك الحقيقى يوم موت على همام . . يقولون : إنه فى تخريفاته الأخيرة سأل عنك . . بكيت كما يليق بولد يتيم ومررت بكفك على التراب الناعم لعله يحس بك .

١٢٤ - الحيب : عندما يرتوى الجبل المحروم / العطشان بالماء حتى يفيض به . . فيحمل الماء الرمل معه ويكتسب لونه . . فيصبح ماء رمليا أو رملا مائيا . . علامة اختلاط الشرق بالغرب ، وتناقض الماء والجبل . .

١٢٥ - دائما ما يكونون متشابهين . .هم أنفسهم لا يعرفون السبب فى ذلك . . ربما كى يشعر من يراهم بالخوف . . وربما كى لا يعرفهم أحد . . فجنود الأمن المركزى الفقراء السمر الضئيلون لا يحسون بالأزمة التى يصنعونها . .

١٢٦ - تسرب إليه اللقب . . فلم يعد يعرف متى تم نسيان اسمه منفردا فى حيز النسيان المحيط به . . دائما ما يتحرك على جانب الطريق . . لأن كل الأشياء تسبقه ، يمشى الهوينى إلى المسجد . .

١٢٧ - يجعل الشباك جاهزة لصيد السمك البائس الذى لا يعرف طرق التعامل مع خداعات الشباك.. يثقلها بالرصاص ويخففها بالفلْ فتظل الشبكة ككل النفوس الحائرة بين بين لا تصل إلى القاع تماما ولا تطفو على السطح وإن كانت تقترب..

١٢٨ - هذا بجانب العشق الذى سكن روحه.. كان كل صباح يتصلب تحت شجرة السنط يسبح ويذكر الله.. ولما تمر ابنة حياة على الطريق قاصدة عملها فى الوحدة الصحية.. يتفصد الجبين المرهق بالعرق.. ويشتعل الصدر بالسعال.. وتحاول العينان الثبات فى مقابلة هذا الوهج.. الذروة تكون عندما يتعامد مرورها مع وجوده.. حينها يحتقن وجهه بشدة حتى يكاد يشتعل ويحاول أن يلتقط النسمات القليلة التى فى الهواء ثم ينفرج شيئا فشيئا كلما تحركت بعيدا فيحمد الله لأنه رآها..

١٢٩ - فلسفة التشابه تدفعنا للتفكير بعمق فى مغزاها.. لماذ يكون التشابه دائما لحد التطابق؟

١٣٠ - العاشق الذى تناديه المدن دائما.. رغم اعترافه بضيقها الواضح وبأسوارها التى تحد من الرؤية.. لكن رائحتها المركبة المتداخلة من الفاكهة والأعشاب الحريفة والعطور والناس والملابس الجديدة والفول والطعمية.. كل ذلك يناديه..

١٣١ - الشريط: القطع الطولى من شباك الصيد الخام قبل أن تفرد وتمد وترتوى بالماء وتعرف رائحة السمك..

١٣٢ كان الأطفال يعيدونه لأمه عندما تصيبه أزمة الصدر.. يحمله أحدهم على كتفه ويسنده الآخرون.. يدخلون به على أمه التى تجلس تلوش أي شيء فى مكانها.. كانت تعاتبه وتعاتب أقرانه..

١٣٣ - الطاقة التى يخبئ فيها كنوزه الثمينة.. حصان خشبى مكسور الذيل،وعروسة قطنية نسيتها قريبة له، وقروش قليلة..

١٣٤ - هذه الغرز المنتشرة فى ربوع البلدان يبدو أنها أمر حتمى ليعرف الإنسان نفسه كما نصحه سقراط.. لأنه فى هذه الغرز يثق الواحد بمن

يجلس بجانبه فيحدثه عن نفسه مستخدما ما يرضى نفسه من اللغة.. كما أنه يعترف ويبوح بوجعه.. وفى آخر الليل يكون عليه أن يواجه العبثية التى تحيط به..

١٣٥ - مقدمة البيت.. ومقدمة كل شيء.. الكلام والمجاملة والمكانة والانتساب.. مقدمة الحياة والموت خشّوا المنضرة عدُّوا كراسيكم.. دا كرسي مين اللى ناقص فيكم

١٣٦ - الشيخ وتكعيبة العنب يستران الغرزة.. وإلا فكيف سيكون رضا الله إن لم يكن هكذا؟ الشيخ يستر الداخل بقراءة القرآن.. والتكعيبة تستر الخارج..

ومع ذلك ظل على الدرديرى يقول لنفسه: الشيخ يقرأ القرآن ومع ذلك مازالت رغبتى فى الشرب قوية.. لعلنى أملك شيطانا عنيدا.. يهز رأسه.. ربما.

١٣٧ - اليوم المشهود تكون له علامات وإشارات منذ الصباح لا يلتفت إليها إلا المبصرون..كأن تشرق الشمس مثلا بزاوية مختلفة ليس من الشرق تماما.. أو يلقى طفل بحجر على قارب فرج محمدين فينتبه فرج ويعاتب الطفل أو تجد بلحة تحت نخلة نافع قد تركتها لك العفاريت.. أو تشاهد عامر يسب رجلا أو يلقي عوض معبد السلام على الجالسين.. أو أن يلتقي محمد عمران بأخيه فيسأله عن أحواله.. أو تمر ابنة حياة ولا تلتفت ناحية شجر السنط..

١٣٨ - المعشوقة التى كلما جاءت أو راحت ظل يرتجف..

١٣٩ - كانت عيناه تبحث فى الأبواب الموصدة عن وجه ما.. عن وجوه عدة.. عندما سال الدم من فمه شعر بأنه تحرر من حشرجة النَّفس الموجوع..

١٤٠ - الصادقون لا تكتمل إجاباتهم.. لأنهم لا يجيدون ملء الثغرات بالتفاصيل المملة.. ولا يحبون الجُمل الرخوة.. ولا المفرادات المستهلكة.. وبالتالى هم لا ينتبهون إلى حدي الوقت الأدنى والأعلى ..لذا يدفعون ثمن صدقهم.

١٤١ - استدعوه ذات مرة إلى أمن الدولة.. أهانوه وجروه على الأرض المجروحة مثله.. لكنهم لما وجدوه مريضا تركوه خشية أن يموت بين أيديهم.. أو

ظنوه تعلم شيئا آخر سوى الحقد عليهم.. الخوف مثلا.

١٤٢ - ربما بكت تلك الجدران من كثرة العذاب الذى رأته وسمعته.. بالتأكيد حنت على صراخ طفل جاء ورحل ولم يعرف لماذا جاء ولا لماذا رحل.. بكت أيضا على الغريب العجوز كلما سال دمه

١٤٣ شدو الغراب الحزين.. ودعوة عجوز تقف على أول الأرض تهتف بالخراب الممتد لساكنى البيوت الفقيرة الذين لا يحتاجون للخراب.. وصوت رتيب ينام عليه طفل لا يعلم مغزى الكلمات..

١٤٤ - مازال يسرى فى ترحيلته الجديدة.

١٤٥ - الراقصون العنيفون الذين ينتهون سقوطًا تحت أقدام الرغبة، عادة ما يصلون إلى حلمهم باللذة، يراقصون الشياطين في حلم طويل.. يشربون من بحار الخمر والعسل.. وينهلون من بحار عذبة، وأخرى مالحة.. كما يأكلون شطوطا من التين والفراولة، وينسون شفاههم المتشققة، تصبح ملساء بلون الفراولة وبنعومة التين. الملحون على حاجاتهم يصلون إليها، قد تلتقيهم العقبات الصغيرة أو الكبيرة، يعتمدون على إرادتهم وينسون إرادة الآخر

للنشر في السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلا عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع

صدر مؤخراً فى سلسلة
كتابة

2- عنقود حياه..... أحمد خطاب

3- برق طالع للسما..... محمد عبد الخالق

4- نقوش حول جدارية..... دعاء إبراهيم

5- فوضى معلَنة..... شوكت المصرى

6- كتابوت يسعل بشدة..... يوسف شعبان مسلم

7- بتشوف القمر أحسن منك أحمد عبد الحكم

8- وبعدها بلحظة محمد السعودى نصر

9- القادمون من هناك محمد عبد الجواد

10- أطلال الياسمين وائل سليم

11- أنا اليوم وحيدة إيمان السباعي

12- سيرة الورد سالم الشهبانى

13- المملوك عمرو الشيخ

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلا عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع

1- قوارب الشمع ..... ياسمين مجدى

2- عنقود حياه ..... أحمد خطاب

3- برق طالع للسما ..... محمد عبد الخالق

4- نقوش حول جدارية ..... دعاء إبراهيم

5- فوضى معلَنة ..... شوكت المصرى

6- كتابوت يسعل بشدة ..... يوسف شعبان مسلم

7- بتشوف القمر أحسن منك أحمد عبد الحكم

8- وبعدها بلحظة محمد السعودى نصر